عرائس الماريونيت

EL MOUTHAKAF

إلهام مزيود

إلهام مزيود

عرائـــــس

الماريونيت

قصص قصيرة

الإيداع القانوني السداسي الأول 2016

ردمك: 978-9931-615-17-0

المثقف للنشر والتوزيع

العنوان : رقم 11 شارع الإستقلال - باتنة –الجزائر

الهاتف: 0675497386 الفاكس: 033852049

البريد الالكترونيElmouthakaf2@gmail.com

الطبعة: الأولى.

تصميم الغلاف: ياسمين ثابت

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة المثقف للنشر والتوزيع لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو استنساخه بأي شكل دون إذن خطي مسبق من الناشر

الإهداء:

إلى الحضنِ الذي احتواني بنعيمِ دفئه... أمّي

إلى القلبِ الذي رعَاني بفيضِ حبّه... أبي

و..

إلى من ألهمني...

الأشقياء في هذه الدنيا كثيرٌ، وليس في استطاعة بائس مثلي أن يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم، فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات، علَّهم يجدون من بكائي عليهم تعزية وسلوى...

مصطفى لطفي المنفلوطي

لقاء الزهايمر

التقى بها صدفة بعد أن شاخا وشاخ بهما الزمن، من دون أن يكلما بعضهما للوهلة الأولى، كانت تجاعيد وجهيهما كفيلة بأن يقرأ كلاهما الأحداث التي عايشها كل منهما بعيدا عن الآخر، حدبتا ظهريهما أعادتا ربط جسر ذلك الماضي الذي نسفاه بفراقهما.

منذ ذلك الزمن الجميل الذي جمع مشاعرهما الطاهرة ثم فرقها وهو ينتظر اللحظة التي ستتنازل فيها لتقول له " اشتقت إليك".

أمعن النظر في تلك العينين اللتين كانتا مأواه، وفي غمرة تضارب الذكريات وأحداثها، تفادى أن يسألها عن حالها، وتقصّدت أن تجيبه عما يدور في خاطره ...فقالت: "اشتقت إليك".

ومع ذروة الذهول، ظهر شاب طبعت ملامحها على تقاسيم وجهه بتفاصيل متناهية الدقة، اعتذر من العجوز حين رآه شارداً منقسما بين الدهشة والغبطة، طلب منه العفو إن كانت قد أخطأت هذه المرأة المسنة في حقه أو تفوهت بأية كلمة أزعجته، اعتذر منه بكلمات كثيرة لم يكن المسنّ قد سمع منها سوى أن العجوز مصابة بالزهايمر بعدما نالت منها السنون.

رحلت الجدة برفقة حفيدها، في حين بقي هو مشدوها يتساءل ما إذا كانت تلك الكلمة التي تمناها كثيرا وانتظرها طويلا قد أفضت بها في لحظة حضور أو غياب للوعي.

عالم افتراضي

أخبرها أن الحب الذي سيعيشه معها هو حب الروايات الرومانسية، نسج لها الحروف المزخرفة بيتا يؤويهما وكسوة تسترهما، وطعاما يسكت جوعهما ...

أخبرته أنها قنوعة، وأن حبه يكفيها لتأكل، وتشرب، وتسكن، وتعبئ بطنها كما حلفت وأقسمت أن آخر ماركات السيارات لن تغريها ، وسوف لن يذهلها عدد الغرف والطوابق في البيوت التي ستراها، ولن تُسيل لعاب غيرتها الألبسة التي ستشاهدها على أجساد قريناتها أو معروضة على مانكَات مخصّصة للإغراء... وأن راتبه لن يجعلها تتذمَّر إن وصل معهما لآخر الشهر أو خذلهما في اليوم العشرين...

أكد لها عدة مرات أن آخر اهتماماته الشكل الخارجي لأنه مجرد زيف وأن جميع النساء اللواتي رآهن في الشارع والمدرسة والجامعة والعمل والمجلات والتلفزيون والانترنيت لم ولن يحركن فيه شعرة واحدة، وأنها هي الأجمل من بين جميع نساء الكون، والأشهى على مر السنين، وأن بريق عينيه لن يشعله سوى وجودها...

أكدت بدورها أنها لن تحرق هناءه بنار غيرتها وستكون الثقة هي مفتاح نجاح علاقتهما وديمومتها وأنها لن تغضب إذا اضطر يوما للانشغال عنها، فهي ستحبه دائما وأبدا وستمنح راحتها قربانا للاهتمام به وبأطفالهما الذين ستحبهم حتما لأنهم سيكونون الفاكهة السائغة لحبهما...

وعدها بأن يبقى معها حتى آخر لحظة من حياته، وأن يفني عمره لأجل إسعادها وبعث الراحة والطمأنينة في قلبها.

تعهّدت بأنَّ الضحكة بجميع ألوانها ستكون من نصيبه، وأنَّ حنانها لن يحظى به سواه، والحب والغنج والرِّقَّة كلها ستكون له.

أكد لها بأنه سيكون البئر التي ستلقي فيه بكل مكنوناتها، سيكون الأذن التي تسمع الشكوى والفضفضة، ولن يرضى إلا أن يكون صدره هو المتنفَّس الأول والأخير لثقل شجونها...

أخبرته أنها ستكون وديعة معه، مطيعة لآرائه، وستعمل كل ما بوسعها لتفهمه وتلاعب بنات أفكاره.

اقسم لها أنها الأنوثة بكل فصولها.

حلفت أن عينيها لم ولن تريا من هو في مثل نُبل رجولته.

عاهدا بعضهما بأن يكونا روحين في جسد واحد وأن يجتهدا قدر المستطاع كي ينعم هذا الجسد بفيض حبهما وينهل من روح تفاهمهما، وبأن لا يستغني أحدهما عن الآخر مادام نفَسُهما لم يقبض بعد...

تزوجا أخيرا وقبل اكتمال الحول صُدِم كل منهما بالآخر، حين اشتد النزاع واستعر الخلاف اليومي اعترفت أنها لم تكن هي، واعترف أنه لم يكن هو.

أنا والغيرة

لا يمكنني أن أنسى وأنا تلك الطفلة كيف دثّرني أبي باهتمامه ورعاني بحبه وأغدق عليَّ من فيض حنانه، غير أني في قرارة نفسي كنت أحس بنوع من النقص، وكان يتملك روحي شيء من الحسد والغيرة، تلك الغيرة لم تكن متشعبة الأسباب فمصدرها الرئيسي كما أتذكر جيدا كان يتمثل في صديقتي التي يملك والدها محلا لبيع السكاكر، لا لشيء سوى لولعي الشديد بكل أنواع الحلويات، هذا على الرغم من أن أبي لم يكن يقصّر عليَّ بشيء، وإذا يومًا اقتصد في كمية الحلويات التي كان يشتريها لي، فذلك بدافع المحافظة على أسناني من التسوس.

حين أصبحتُ مراهقة لم تعد تغريني صديقتي بمحل والدها، ولا بكمية المصاصات الزاهية الألوان التي يبدع في عرضها أمام أمثالي، ولم يعد لعابي يسيل كلما رأيت أكياس الحلوى المشكّلة خصيصا لإغراء براءة الأطفال، صارت نظرتي أبعد قليلا من حدود أنفي صرت أتطلع لِلَون ونوع السيارة التي يقودها والد صديقتي الجديدة، الذي كان يأتي عند نهاية كل دوام ليصطحبها على متنها، كم كانت تترك فمي مفتوحا هي وسيارة والدها وجميع من يعجبون بها!...كبِرتُ والغيرة في قلبي تنمو وتتطور وصورة الوالد المثالي تتغير وتتبدل في نظري، صرت شابة احمل بين يدي شهادة جامعية أثقلتْها بأحلامي التي أطلقتُ لها العنان لتُقَصَّ جناحيها قبل أن تحلق بي بعيدا إلى حيث مرامي، حاولت البحث عن عمل أَسُدُّ به رمق متطلباتي غير أنني لم أكن أعلم أن الوظيفة التي سأشغلها مباشرة بعد تخرجي من الجامعة هي وظيفة البحث عن عمل، وما أضناها وأشقاها من وظيفة، صرت بكل ما أوتيت من قوة الغيرة

وسواد الحقد أحسد صديقتي التي يشغل والدها منصبا راقيا في الحكومة، فهي لن تتورَّط في تلك الوظيفة التي يستلمها أغلب الشباب مباشرة بعد التخرج "وظيفة البحث عن عمل" فالعمل يطرق بابها، وهي كما تشاء تقبله لأجل التسلية، أو ترفضه في انتظار ما هو أحسن في نظرها و أشيك في نظر الناس وفي المنطقة والمؤسسة التي تناسبانها...

نسيت كل ذلك حين صرت امرأة ناضجة وفتحت بيتا مع زوج اختاره قلبي وباركه والداي غير أنني بدأت أتذمر من جديد بسبب عدم زيارة والدي لي بصفة دائمة، ونسيت أن أضع له أعذارا وأن انحني اعتذارا لتلك الحدبة التي قوست ظهره والتي كان سببها الرئيسي شقاؤه لأجلي، وصرت أغار من جارتنا التي يأتي والدها كل مساء ليصطحب طفلها، يلاعبه ويشتري له ما تشتهي نفسه من أغراض.

أبوها حنون، صحيح أن أبي حنون لكن ليس بحجم حنان والدها، انه يتفقَّدها بشكل منتظم ولا اذكر أنه أسقطها يوما من برنامج زياراته، كنت أعرف أن زوجها مسافر وأن والدها كان يحاول سد فجوة غيابه باهتمامه بها وبطفلها، حتى لا تكون في حاجة لأحد غيره، أما أنا فرغم الوجود الدائم لزوجي إلى جانبي إلا أني لم أستطع أن أعذر والدي فقد كنت بحاجة لقدر كبير من حنانه وعطفه...

شِخت ولعب الزمن بتفاصيل وجهي، تفنَّنت خيوط التجاعيد المتشعبة في رسم خارطة الكبر والوهن على تقاسيمي، تجمعت دموع الأسى في عيني وملأ الشجون روحي وأنا أتذكر كل ما مضى.

وحسدت تلك التي لم يسرق منها الموت والدها، حسدت كل من تملك أبا أيا كانت صفته...

هواية مبتورة

حين شبَّ وخلع عن محياه ملامح الطفولة أصبح شغفه الوحيد الاختلاء بنفسه، ليس للتأمل في أمور الدنيا ولا التدبر في معجزة الكون وأسراره، بل كان اختلاؤه يسبح في فلك رسم فتاة أحلامه، ورغم أن الرسم لم يكن الهواية التي شغف بها على أرض الواقع ولا حتى بغيرها، غير أنه كان يُجسِّدها في مخيلته بكل احترافية وتفانٍ، فهناك فقط "في مخيلته" استطاع أن يعطي الحرية لريشة خياله ويطلق العنان لألوان قلبه...

ولأنه الخيال فالمساحة لم تكن محدودة، والأماني لم تكن مضبوطة، كان حرا في اختيار المكان وكذا الزمان الذين يرى فيهما فتاة أحلامه تخترق مخيلته وتستحوذ عليها لتحتلها كليا.

أتقن رسم عينيها وحاول في كل مرة الزيادة من اتساعهما، فقط كي يكون مأواه مريحا فيما بعد، أما بالنسبة لشعرها فقد كان سخيا معه إلى أبعد الحدود إذ كان يزيد في درجة نعومته ومدى طوله كلما تخيل أنه سيأتي اليوم الذي سيلتحفه فيه للأبد، حتى شفتاها كان دقيقا معهما ولم يكن بخيلا عليهما باللون الأحمر طالما أنه يرى نفسه في حضرتهما ثورا اسبانيا لا يثيره ولا يأسر روحه سوى هذا النوع من الاحمرار...

لم يُدقِّق كثيرا في حجم الأذنين أو تفاصيل شكلهما فقد أجزم أو هكذا خُيِّلَ إليه أنها ستسمعه دون أن يتكلم، وأن همسات قلبيهما سترتبط بينهما لغة سرمدية تغنيهما عن كل لغات العالم، لم يركز أبدًا على لسانها وربما لم يفكر فيه بتاتا فهي حتما كما تخيلها لن تنبس ببنت شفة ولن تتكلم

إلا بما يرضيه ويُدخِل الغبطة على وجدانه، وطبعا متى شاء هو أن يسمعها، وقد أقنع نفسه أنها لن تشتكي ولن تلوم ولن تتذمر وستسكت حين يكون في غنىً عن سماع أي صوت كان... ستكون قطعا وبدون أدنى جدال الحمل الوديع والملاك الحارس الذي وُجِد لراحة قلبه ومن أجل بث جذور السعادة في ثنايا روحه...

عمل كثيرا على تطوير اللَّوحة وتزيينها بكل ما أوتي من شغف، في مخيلته يوما بعد يوم، شهرا بعد شهر وسنة بعد سنة، أضاف إليها وأنقص حسب مقتضيات احتياجاته التي تتبدل في كل حين ورغباته التي تتطور بين الفينة والأخرى... وبدل أن يجلبها من عالم الخيال كي تنير له عالمه الواقعي سحبته هي عميقا إلى أن مات أسير عالمها..

أحلاهما مر

اتخذت أخيرا قرارها بترك المنزل الذي اجترَّت لوعة الصبر تحت سقفه طويلا، أغلقت حقيبتها بعد أن عبأتها بما هو ضروري من ثيابها وثياب طفليها، وقبل أن تغلق الباب وراءها وبنظرة شاملة من عينيها ودَّعته غير آسفة عليه ولا على الذكريات التي عاشتها فيه وانطلقت تجرُّ ابنها في يدها وتعلّق ابنتها الرضيعة إلى حضنها، كانت راضية عن نفسها كليًّا ومتيقنة تماما أن هجران زوجها وطلب الطلاق هو الحل الوحيد لنهاية مأساتها مع رجل جشع، يضربها في كل الأوقات بمناسبة وبغير مناسبة وما أكثره الضرب الذي يأتي فجائيا، يلقي عليها بوابل من السباب والشتائم كلما تأخرت في الاستجابة لمطالبه أو لم تنتبه لها، وكثيرا ما جرَّها من شعرها لدوافع عدة ولعل أهمها أنه يغار عليها كما يقول ولن يرتاح إلا إذا سحب يده من شعرها تغلفها كومة شعر لا بأس بها، يلقي بها في وجهها وأمام مرأى طفليها المرعوبين من منظره الهمجي وينصرف ليعود آخر الليل.

في البداية كانت تظن أن كل إنفعالاته وتصرفاته المشينة مؤقتة، وتمنِّي نفسها بأن نضجه لم يكتمل بعد أو أنها مجرد غيرة حب أو ربما هي ثورة غضب ستخمد نارها في أقرب وقت وسيندثر دخانها يوما ما، إلا أنها أصبحت متيقنة أنه أسلوب يتبعه خصيصا لإذلال روحها ولم يعد هناك أدنى شك في أن جسدها هو مجرد حلبة مصارعة يتم فيه إفراغ وابل غضبه...

في طريقها لمنزل أهلها أطلقت العنان لذاكرتها التي سحبتها رغما عنها لأول مرة لَطَمَها فيها على خدّها، وقتها تأثرت كثيرا لجرح مشاعرها الحساسة وحلفت مائة يمين ويمين بأن لا تسامحه بل وتوعدت كثيرا بإلغاء الخطوبة والانفصال عنه نهائيا، فنسيانه..

_وماذا سيقول عنا الناس والأهل والجيران، أتريدين فضحنا؟ نهرتها أمها بوجه مخطوف اللون اِصفر فجأة وانكمش كحبة ليمون سقطت على الأرض، وذلك حين ألقت عليها بما تفكر فيه ابنتها الطائشة كما نعتتها...

وحتى لا يكبر الموضوع برأس ابنتها أخذت تسرد عليها تاريخ الأزواج الذين كانوا يعانون المشاكل في بداية مشوارهم ثم أصبحوا أحسن مع مرور الزمن دون أن تنسى إضافة قصص وحكايات تولت مخيلتها اختراع ما يتناسب منها مع الظرف الذي تمر به ابنتها...

_ عليكِ التحمل يا بنيتي فكل الرجال هكذا، هم عصبيون في البداية ثم يلينون.. أردفت الأم بنبرة ترجي لم يكن من البنت إلا أن رَضَخَت مشفقة عليها...

خاصمته عدة أيام كانت الأشد وطأة عليه، استسمحها وطلب رضاها طويلا بكل ما أوتي من حيلة وتلاعب في الكلمات، حتى لانَ قلبها في انتظار اليوم الذي يلين فيه هو بعد الزواج.

كان عند كل خطأ مهما كان بسيطا وببعض اللطم واللكمات يقوّمها بين الفينة والأخرى على حد تعبيره، يعود بعدها ليعتذر متحججا بظروف العمل الصعبة، أما بعد تقادم عشرتهما لم يعد يعر مشاعرها أدنى اهتمام ولم يعد يعتذر أو يتحجج بشيء فكلما خطر على باله إفراغ شحنة غضبه من مشكل ما حدث معه خلال يومه يقوم بسحبها من شعرها عند أول وأبسط هفوة منها، يكنس بها أرضية المنزل، ثم ينصرف ليتركها تسكت هلع أطفالها.

لم تفكر كثيرا فيما ستقوله لأهلها عن سبب تركها لبيت زوجها، فالكدمات التي تغطي جسمها كفيلة بتفسير كل ما عانته وتعانيه معه كما أنهم على دراية تامة بمزاجه السيء دائما...

استوقفها صوت ابنها يطلب منها أن تشتري له حلوى من عند البائع المتجول، أجابته لطلبه وجلست على كرسي في الحديقة التي أغرت ابنها للعب بينما بقيت الصغيرة في حجرها..

مراقبتها له وهو يمرح جعلتها تسرح مجددا بالتفكير في كيفية إعالته وأخته، كيف ستصرف عليهما، كيف ستلبسهما وتطعمهما وتدخلهما المدرسة دون أن تنقص عليهما شيئا، كيف ستقوم لوحدها بدور الأب والأم في آن واحد... تخيلت سيرتها علكة تمضغها أفواه من تعرف و من لا تعرف وهم ينعتونها بالمطلقة هاجرة بيتها، سيلومها الجميع على تشتيت أسرتها وتربية طفليها بعيدا عن أبيهما، حتى هذين الولدين من المؤكد أنهما لن يسامحاها وسيلومانها يوما ما على تيتيمهما فيما لا يزال أبوهما على قيد الحياة.

غزت ذاكرتها في هذه اللحظات صورة المطلقات اللواتي تعرفهن وقبل أن تخوض في تفاصيل حياتهن بعد الطلاق علا صوت ابنتها الرضيعة التي كانت نائمة كعصفورة مستكينة ـ ليقطع حبل أفكارها. نادت على ابنها، أمسكته من يده وجرّت باليد الأخرى الحقيبة المنتفخة بما هو ضروري من ثيابهم، أما الرضيعة فكانت تلصقها كالعادة إلى صدرها، وتهدهدها ببعض الكلمات الهامسة التي تحاول من خلالها إسكاتها ريثما تصل إلى البيت...

أسرعت الخطى وهي تتطلع للساعة التي لم تكن منتبهة قبل قليل لسيران عقاربها بتاتا، بمجرد وصولها إلى البيت هرولت لإخفاء الحقيبة في الخزانة وقبل أن تغير ثيابها كان زوجها قد وصل البيت، سألها باستغراب أين كنتِ؟

ابتلعت يومها والذكريات التي استحضرتها فيه ثم أخفت قرارها وانتفاضتها الفاشلة في أعماق قلبها وأجابته بهدوء مرتبك: كنت أنزِّه الأطفال فقط... وقفت بعد ذلك جامدة حابسة أنفاسها منتظرة لحظة انفجار وابل غيظه...

وعد أجوف

أحبا بعضهما كثيراً، تزوجا وعاشا حياة زوجية ليست سعيدة كنهايات المسلسلات المكسيكية ولا حزينة درامية كيوميات المسلسلات التركية، كانت حياتهما عادية تطبع عليها صبغة الحب، عاشا معا عقداً من الزمن، تقاسما فيه معا عقدا من لآلي الأحلام والأماني المعلقة على مشجب الصبر، وكم كان جميلاً ذلك العقد رغم بعض المنغصّات والظروف الخارجة عن سيطرتهما! كانت تحبه بلا حدود و بالمثل كان يحبها أو هكذا كان جليًّا أمام جميع الأعين...

كانت تحس بغبطة داخلية تدغدغ كافة خلايا جسدها، وترقص على أوتار لحنها الشجي نبضات قلبها، لتحلق روحها كفراشة ربيع أذهلها ما جاد به هذا الفصل عليها كما سيدهشها هي ما سيجود به لسانه، كلما سألته عن فحوى حياته بعدها إن هي ماتت... يتهرب ما استطاع من إجابة السؤال مراوغا ومحاولا بنظرة عينيه وهمسة صوته إقناعها بأنه من المحتمل أن يسبقها إلى ظلمة القبر، لكنها تأبى أن تصدق هذا الاحتمال، وتطلب منه في عناد وإلحاح أن يعيد سرد الكلمات التي يلقي بها على مسامعها في كل مرة تسأله فيها هذا السؤال بعدما يتهرب بنفس الطريقة من الإجابة...

يشدُّ على يديها يضغطهما بين يديه أكثر ينظر في عينيها والحزن يلبّد كليا عينيه الواسعتين فتتراقص نبضات قلبها وتعلو الإيقاعات داخله وهو يجيبها بابتسامة تنعكس على تقاسيم

وجهها المتلهف لسماع ما يقول مثل كل مرة، يخبرها بكل حنوّ وثقة أن لا حياة بعدها فيتراءى له أن هذه الإجابة شافية وكافية ومع ذلك فإن ما قاله لا يروي ظمأ إلحاحها ، تومئ برأسها أن يكمل كلماته، فيشع الفرح في عينيها أكثر حين يعدها انه سيبقى وفيًّا لحبها، أن يكمل حياته سجينا وراء قضبان ذكراها، يؤكد لها استحالة أن يكون قلبه سكنا دافئا لأية امرأة سواها، ويقسم لها بعد أن يضمها إلى صدره أنه سيغرق في دموع الأحزان إن هو يوما أفاق ولم يلقاها...

وجاء اليوم الذي فتح فيه عينيه ولم تقاسِمه فتحَ عينيها لينطلقا معا كما جرت عادة السنون في تقاسم أعباء يوم جديد، خيَّم الحزن على محياه حين ناداها ولم تجب، صرخ ولم تجب، هزَّها بعنف ولم تجب، لطم خدها ثم خده غير أنها لم تجب، علَت بعد ذلك صرخة الألم والحزن فانهمرت دموع أطفالها معلنة فقدانها للأبد...

حضر المعزون وتغير كل شيء في ساعات معدودة، شكل البيت، الأحاسيس، الذكريات، لا شك وأن رائحته المميزة اصطحبتها معها وإلى الأبد...

هو أيضا أقنع نفسه أن الرائحة المنفردة لبيته قد أبت إلا أن ترافقها إلى قبرها، ولم تترك له سوى رائحة الفقد بديلا أو هكذا أقنع نفسه مرة ثانية، في جنازتها لم يكن بوسعه سوى أن يبكيها بعينيه ويبحث برغبته بين المعزّيات عمن ستعطر برائحتها حياته من جديد فتنسيه رائحة امرأة أصبحت تسمى منذ اليوم "الماضي"..

غربة

يا الرايح وين مسافر تروح تعيا وتولي

شحال ندموا العباد الغافلين قبلك وقبلي

شحال شفت البلدان العامرين والبر الخالي

شحال ضيعت وقات وشحال تزيد مازال تخلي

*يا الغايب في بلاد الناس شحال تعيا ما تجري**

ـ مقطع من أغنية جزائرية شعبية لـ: دحمان الحراش

حين تقدَّم عزيز لخطبة رحيمة حُلم عمره لم تستوعبها الدنيا من شدة غبطتها، أخيرا ستكون في منزله، سيضمُّ سقف واحد أشواقهما المؤجلة ونظراتهما المسروقة، صحيح أن فقره مدقع غير أن حبهما سيعوض كل نقص وغنى مشاعرهما سيطغى على فقر جيبه.

تقاسما معا سنوات من الحاجة عوضاها بثروة أخرى تمثلت في إنجاب أربعة أطفال فالإنجاب هو ثروة الفقراء التي يستطيعون جنيها دون تعب أو تخطيط، لم تلمه يوما على فقره فقد كان خيار قلبها، كما أنها تعرف وضعه وهي على دراية تامة بحالته الاجتماعية منذ أن وعت على الدنيا وقبل أن تتعلق به عيناها، فهو جارها الذي كانت تراه يوميا دون أن تكلف نفسها عناء البحث عنه.

وضعهما الاجتماعي ازداد سوءًا بعدما تفاقمت مطالب البيت وساكنيه يوما بعد يوم ولم يعد الحب والحنان كافيا لإطعام وكسوة الأطفال، حتى محله الصغير القابع آخر الحي أصبح وجوده وعدمه سواء فإن أطعمهم اليوم هو عاجز ـ لسوء الوضع برمته في القرية ـ عن سد فوهة معدتهم غدًا.

أحد زبائنه الذي كان يقصده بين الحين والآخر للتسامر معه ومشاركته قتل ليالي الصيف الروتينية في تلك القرية التي تفتقر للكثير من المرافق إن لم نقل لجميعها، نصحه وألحَّ عليه بالهجرة إلى فرنسا وأكد له أنه بإمكانه أن يحسِّن وضعه المادي بعد أن يصبح "عزيز الميقري" مثل أغلب مهاجري القرية الذين لم يهابوا المجهول وحزموا حقائبهم لشق البحر نحو فرنسا وهاهم يأتون مع كل فصل صيف خصيصا ليَظهَروا بالثوب البراق الذي ألبستهم إياه أوروبا والذي يبدو جذابا عليهم حتى لو صُبِغت وجوههم بلوعة الحنين.

لم يستغرق عزيز في التفكير طويلا ولا درس الموضوع كثيرا بل طرح الفكرة على رحيمة مباشرة فور وصوله إلى البيت، شجعته بمجرد أن ألقى على مسامعها ما يدور في خاطره وطارت بقلبها الفرحة التي نسيتها مع منغِّصات العيش كما أثنت كثيرا على الفكرة وامتدحت طويلا فيمن قدمها لزوجها.

_ في فرنسا العمل مرمي على أرصفة الطرقات، الأورو يتراقص في كل الجيوب حتى لو لم تكن لديك أية شهادة دراسية أنت مؤهل لكل عمل...

بهذه الجملة حسم عزيز كل ما يدور في خاطره وهو يلقي بها على مسامع رحيمة، في تلك الليلة الحارة التي اقتنصا فيها من حوش المنزل مكانا جلسا فيه يتطلعان لنجوم السماء ويستمعان لصوت الصرصور - مؤنس كل سكان بيوت القرية -.

رسما بتطلعاتهما أحلامًا لوناها ببريق خلاص قادم، هذه الأحلام في بساطتها وبراءتها لم تكن تتعدى في الأصل مطلب تحسين الأكل والملبس، و توسيع البيت مع فرشه وكذا ترفيه الأبناء هذا إن كان حظه وفيرا واستطاع الوصول إلى هناك سالما. أما العمل فكما أقنعه صديقه واقتنع هو فإنه متوفر أينما ولَّى وجهه، كان هذا ما خططاه هذه الليلة وسوف لن يتوقفا عن التخطيط عند هذا الحد أو هذه الليلة.

انشغل وانشغلت معه قبل موعد سفره بتحضير أوراق الهجرة والتي تعد هذه الخطوة بحد ذاتها من أصعب الخطوات بالنسبة لرجل انحصر تعليمه في قدرته على الكتابة والقراءة وبصعوبة كبيرة. استلف من أقاربه ومعارفه مبلغا يمكِّنه من السفر وقد وعدهم أنه سيرده فور استقراره هناك... وراء البحار.

كان يستجمع قواه بتشجيع نفسه وكانت رحيمة بدورها تشجعه بكل ما أوتي خيالها من قصص الأمل والنجاح لتقوي إصراره وتثبِّت عزيمته، كما كانت تسرد له أمثلة عن بعض عائلات القرية التي لم يكن يُسمع لها صوت من شدة فقرها وعوزها ثم أصبحت تعدُّ من الطبقة الميسورة الحال أو الثرية بمجرد ما ترك رب الأسرة أرض الجزائر واتجه إلى فرنسا.

بعد الكثير من النصائح التي تلقاها من المغتربين برحابة صدر وشغف كبير التجأ للتفكير في الطريقة التي سوف يسوِّي فيها وضعية أوراقه إلى الأبد فاتفق مع نفسه انه سيتزوج زواجا أبيضا يمضي فيه على عقد زواج مع فرنسية، أو مغاربية مغتربة تملك الجنسية الفرنسية، واتخذت العمل على المتاجرة بجنسيتها مهنة مربحة لها ولأفراد عائلتها، فعادة ما تلجأ المغتربات - اللواتي تملكن جنسية فرنسية - إلى التوقيع على عقد زواج مع مغترب آخر يبحث عن جنسية فقط لا زوجة مقابل ظفرها هي بملغ مالي معتبر يقدمه لها وبذلك تسوى وضعيته ويصبح تواجده هناك شرعيا...

أتى يوم السفر أخيرا، ودَّع أولاده وزوجته بدموع الأمل، أمل تحقيق أحلام مسطرة بعناية، والعودة في أقرب فرصة تتحسن أحوالهم فيها...

في أول أسبوع له هناك التقط لنفسه عدة صور وسعادته تعانق برج ايفل، هناك تسمر بوضعيات مختلفة، لكن بابتسامة الفخر نفسها حرص على إرسالها لشريكة حياته وأطفاله في أقرب وقت سمحت به الفرصة كي يطمئنهم إلى وصوله ويحفِّز أحلامهم وأمانيهم على الاستمرار...

قضى شهره الأول والثاني حتى السادس في التجوال، صرف معها جميع نقوده وصرف معها الأيام التي تسمح له بالبقاء في فرنسا بصفة شرعية، وتحتم عليه إيجاد حل بأسرع وقت ممكن قبل أن تزجَّ به الشرطة في السجن أو ترحله إلى حيث أتى.

تعرف خلال آخر أيام تسكعه على مهاجرين مغاربة، اختلفت سنوات تواجدهم هناك، واختلفت وضعياتهم بين من يعمل مرتاح البال لأن جميع أوراقه سليمة ومن يختفي هنا وهناك وينأى بنفسه بعيدا عن أعين البوليس، دعوه إلى مكان اختبائهم ليلا، وأصبح مثلهم يحترف لعبة الاختفاء، خصوصا أنه اهتدى أخيرا إلى عمل في ورشة للبناء مع أصدقائه ولا يريد لأي خطأ أن يفقده عمله الذي أتى من أجله.

كان يذخر كل راتبه تقريبا فلا يقتنص منه سوى مبلغا صغيرا يصرفه على الأكل، فالملبس لم يعد يعنيه إذ أن أغلب وقته كان يقضيه بثياب البناء، وفي أوقات الراحة يذهب لينام أو يتسامر مع أصدقائه بعيدا عن أعين الشرطة، صاحب العمل كان يعطيه راتبه كاملا وفي الوقت المحدد، هو محظوظ من هذه الناحية فغيره من المهاجرين لا يتقاضى راتبه بصفة منتظمة وما أكثرها الأحيان التي يتقاضاه فيها بنقصان، وإذا اشتكى أو تذمر يلوح له -

صاحب العمل - بأنه بإمكانه إرساله إلى السجن في رمشة عين وليس مضطرا لدفع أورو واحد لأجله...

كان عزيز يعمل على جمع راتب ثلاث أشهر أو أربعة ليرسل به دفعة واحدة إلى رحيمة، التي كانت في كل مرة تبشّره عن طريق الهاتف بعد وصول نقوده إليها أنها اشترت غرضا جديدا للبيت.. مرة خزانة، وأخرى طاولة، تصف له فرحة الأولاد وهم يودّعون الجلوس على الأرض أثناء الأكل ويرتقون لسفرة تزينها أصناف أطعمة توضع في أطقم صحون راقية تفتح شهيتهم أكثر، تحدثه كثيرا عن مدى وسامتهم وهم يرتدون ثياب "فرنسا" ذات الماركة العالمية صحيح أنه كان يشتريها من الأرصفة أو يأخذها مجانا من أمام البيوت لكنها تبقى ماركة عالمية كما كانت تقول لها أختها، لم تنسَ أن تخبره أيضا عن الغيرة التي باتت تسكن قلوب جميع من كان يحتقر فقرهم وعن مدى اتساع عيونهم وهم يرون الأجهزة الكهرومنزلية التي اشترتها خصيصا لمساعدتها في عمل البيت المضني من جهة وإضفاء جو من الرفاهية والزينة على بيتها من جهة أخرى.

مرت الشهور ثم السنوات الأولى واشتد عليه الخناق وأولاده الذين كانوا يكلِّمونه في كل مرة ببحَّة الدموع تغمر أصواتهم، قد تأقلموا مع الوضع وأصبحوا يَذكُرُونَه عند موعد إرسال النقود فحسب.

أما هو وبعدما أنهكته الإقامة غير الشرعية والتخفي الدائم، قرر أن يتزوج ليسوي وضعيته ويكتسب جنسية فرنسية تمكنه من الذهاب والإياب متى شاء.

تزوج من أرملة تونسية مغتربة، كانت تكبره بعشر سنوات، كل ما كان ينقصها رجل، وكل ما كان يحتاج إليه جنسية، زوجته رحيمة لم تعترض بل هلَّلت للفكرة وشجعته لكي لا يكون

الزواج مجرد زواج أبيض حتى لا يدفع أورو واحدا، فذلك المبلغ الذي سيدفعه مقابل زيجة مماثلة، يمكن استغلاله في شراء ما هو أنفع للبيت.

مع الأيام تعلق قلبه بالأرملة التي كانت له الوطن في غربته، ولم يعد زواجه مجرد مصلحة، لقد أحبها فعلا، واجتهدت هي كي تنسيه عن فكرة العودة إلى الجزائر، أكدت له أن باستطاعته الآن العمل أين شاء وبمقدوره التجول في وضح النهار وأمام جميع الأعين، واقتنع هو بكلامها واقتنعت رحيمة المقتنعة أصلا بعدم ضرورة تضييع مصاريفه على السفر ذهابا وإيابا، خصوصا أولادهما كبروا وزادت مصاريفهم بعد كل هذه السنوات من الغياب، فابنتها البكر قد خُطِبت وهي بحاجة لتجهيزها بجهاز يليق بوضعهم الاجتماعي الراهن، وبات عليها الآن أن تنافس من كانت ترى أنهم أعلى منها مستوى وأن تقف الند للند مع عائلات غنية لتكون رفقة ابنتها في الواجهة... حاول هو من جهته إرسال كل ما طلبت واكتفى بالتهنئة وبهدية كانت حبة مسك فوق مطالبها...

في اتصال مقتضب لرحيمة مع زوجها، والذي أصبح ميزة اتصالاتهما في الآونة الأخيرة، ذكرته أن العائلة الصغيرة قد أصبحت كبيرة بما فيه الكفاية لتغيير منزلها، وأنهم بحاجة الآن إلى سيارة بعدما حصل ابنها على رخصة السياقة، فهي غير مضطرة لتمضية ما تبقى من حياتها في المواصلات أو استئجار سيارة كلما أرادت زيارة ابنتها أو احد أقربائها..

توالت الطلبات وتوالى الإرسال ومرت السنون وحان الوقت الذي سيرجع فيه عزيز رغما عنها وعنه وعن زوجته المغتربة وعن أولاده، حضرت كل العائلة الأقارب، الجيران، أصدقاء الطفولة، الذين يحبونهم والذين لا يحبونهم، امتلأ البيت عن آخره وبدأت رائحة القهوة تفوح في الحي باعثة برقية العزاء لقرية فقدت ابنا في حضن غير حضنها.

تحجَّرت الدموع في عيون أطفاله الفاقدين لروح الحنان الأبوي وبقي نواح رحيمة يرتفع حينا ليلامس عنان روحها والأرواح المشفقة على حالها ويخمد أحيانا أخرى، وهي تحكي للمعزين قصة كفاحها وزوجها من أجل أن تظفر عائلتها بهذا النعيم... كان ذلك في انتظار وصول جثمانه.

أرقام خيالية

في الماضي كانت ابنة الثامنة عشرة
عانسا إن لم تتزوج
ثم أصبحت ابنة العشرين
فالخامسة والعشرين .. ثم الثلاثين
وغدًا قد تصبح ابنة الخمسين

العنوسة إذاً قصة لا وجود لها
هي أرقام خيالية

هاني نقشبندي

عمري الآن ثمانية وثلاثون سنة بالتمام، من حسن حظي أن علامات الجمال لا تزال بادية على وجهي وهذا بشهادة كل من يحتفظ لي في ذاكرته "المثقلة بي تحديدا" بشيء من ملامحي، صحيح أن عنكبوت الزمن بدأ ينسج خيوطه حول وجهي ورقبتي ليستكين نهائيا على خارطة وجهي بعد حوالي سنتين، ومما لا شك فيه أن التجاعيد ستجد أرضا وفيرة على محياي بعد أعوام قليلة غير أنني راضية تماما عن نفسي ولم أتذمر يوماً أمام أحد من وضعي.

وبالرّغم من أنني لم أكمل تعليمي الثانوي فثقافتي ليست محدودة أبدا، أنا أعرف أن التقاليد التي نَسَجها المجتمع بخيوط بالية لم ينزل بها من سلطان في ديننا الحنيف وأن العادات التي

باتت جزءا لا يتجزأ من ثقافتنا ليست سوى ثقافة مغلقة بالزور والبهتان غير أنها ولحسن حظها وجدت منبتًا خصبًا في عقول أبناء هذا المجتمع تحديدا...

حين رسبت في شهادة البكالوريا، لم يكن أبي حيا ليقول شيئا، أخي الذي تولى مسؤولية البيت آنذاك طلب مني التوقف عند هذا الحد، بسبب مصاريفه الكثيرة من جهة وزواج أختي الكبرى وخلو البيت ممن يخدمه من جهة أخرى، وقد تلاه بعدها مباشرة مرض أمي واستقالتها بغير حول منها ولا قوة من أعمال البيت..

الآن أنا مجرد رقم، نعم رقم يُضاف إلى كلمة جمعها عوانس لا أدري أصل التسمية ولم أبحث عن مصدرها، كل الذي اعرفه أنها باتت تتصيدني مع كل شهيق وزفير في هذه الدنيا... أعرف أيضا أنني لم أعد صغيرة في السن وهذه الصفة باتت تنطبق عليَّ وعلى مثيلاتي مثلما تسن عليه الأعراف.

ولأنه لم يكن لي دخل في لعبة الحروف التي يبتدعها المجتمع ولا في فزيعة عدد السنين التي يفرِضُها علينا الزمن فأنا لست منزعجة من تقدم سني وتأخر مجيء العريس، لكن كل من حولي منزعجون، ومنهمكون في البحث عن أسباب تأخر السيد العريس، إنهم يترقبون بشغف، ويصدحون كلما التقيت بهم، متى نفرح بك؟ أليس هناك أي عريس على الطريق؟ أنت أكيد بليدة، العريس غير موجود أم أنكِ أنت من ترفضين؟؟ إلى متى تتشرطين؟ هل تنتظرين أحدًا ونكث بوعده فترك قلبك باردا وغلَّق الباب على كل من يحاول الدخول بعده؟...

أحيانا كثيرة أحسد الطرش لأنهم في غنى عن سماع ما لا يحب ولا يحبذ سماعه.

ولكي أُغنِي أذنايَ عن استقبال العبارات التي ذكرتها سابقا قررت التوقف نهائيا عن الذهاب للمناسبات الاجتماعية، وخاصة حفلات الأعراس التي كانت وكرا لتلك الكلمات وتلك العبارات أين كانت النسوة ولازالت حتما تبدعن في اختراع عادات تنحني أمامها البنات طوعا وتحببا.

اذكر جارتنا التي تزوجت برجل ينام نهارا ويسكر ليلا، قالت لي في إحدى الزفات انه يتوجب علي ترصد وقت نهوض العروس من مكانها حتى أسارع للجلوس بدلا منها وبهذه الطريقة سأكون حتما العروس المقبلة، لا أدري لحد اليوم أي كرسي جلست عليه المغفلة لتحظى بزوج مثل زوجها!.

ولا يمكنني أن لا أتذكر المشهد الكلاسيكي لخروج العروس طبعا، ليس مشهد العروس ما يقبع دائما في رأسي بل منظر المرأة التي تلكزها قائلة:

_ جرّي قدميك كي تسحبي معك البنات الباقيات، أو انزعي حذاءك بعضا من الوقت لتكتب اسمها عليه من ترغب في الارتباط وتمشي على دربك، سيأتيها العريس الخاطب في أقل من أسبوعين... ولكُمُ أن تتصوَّروا هذا العريس الذي يأتي من تحت الأحذية!

حتى الطمينة التي كانت أم العريس تُطعمها لعروس ابنها يوم العرس كانت اغلب الفتيات يتهافتن عليها، رغم أنَّ مذاقها يجلب التقزز ويبعث بالرغبة على الاستفراغ، وكانت الفتاة التي تنسى أو لا تحبذ إزعاج معدتها بذلك الخليط "المكون من الزبدة والدقيق" تذكرها أمها أو صديقتها بالعادة التي يجب أن ترضخ لها...

ومجرد تذكر تلك اللحظة التي يدعونني فيها لارتداء فستان العروس بعدما تنزعه مشبعا بعرقها كي أكون العروس الموالية يجلب لي المزيد من الاستفراغ والغثيان...

مكوثي في البيت لم يكن من أجل الأكل والشرب والنوم، أختي مع أول حمل لم تعد تطيق طبخها طول فترة الوحم أنا من تولت الطبخ لها ولزوجها وحين شارفت على الولادة توليت مهمة تنظيف البيت وترتيبه، في انتظار وصول مولودها إلى الدنيا سالما، ذهبت معها إلى المستشفى سهرت هناك طوال الليل مع أمي في انتظار أن تلد، ومع ولادتها مباشرة سبقتها للبيت كي أقوم بتجهيزه ريثما تصل ويصل الضيوف بعدها، هذا العمل لم أقم به مرة واحدة بل توالى في المرّات الثلاثة الأخرى التي حملت فيها وأنجبت، كان هذا هو واجبي الرئيسي، هي أختي ومن واجبي السهر على راحتها، كنت أحبها كثيرا ولم يكن يزعجني منها سوى تلك النظرة المشفقة التي تحسسني أن أحد أعضاء جسدي مبتور أو أن بي تشوها خلقيا يبعث على الرثاء والشفقة، وكم كانت تحبطني تلك التنهيدة التي كانت تخرجها من أعماقها وهي تتحسر على عدم زواجي حتى الآن، بدل أن تشكرني أو تشكر القدر الذي لم يبعث لي بعد بعريس يبعدني عنها وعن خدمتها، أكتم جوابي بابتسامة منقوصة علّها تترجم لها ما بداخلي، هي معذورة مثل كل هذا المجتمع الذي ترك كل ما يستدعي تفكيره وتأمله وحصره بي أنا ومثيلاتي...

أخي أيضا لم ابخل عليه بشيء فحين قرر الزواج كنت أنا من حمل عبء التحضير لعرسه وتجهيز عروسه، اخترت معه خطوة بخطوة هداياها ونسقت معه بتفان ألوان الثياب التي تحب وتدخل البهجة والفرح إلى قلبها...

هو كريم ولطيف معي أو هكذا يعتقد فمثلا يوم ذهبنا لشراء حليّها كما تنص العادات عندنا، اشترى لها طوقا وأسوارة من ذهب طبعا، واشترى لي أنا خاتما جميلا لكن من فضة، ابتسمت لي خطيبته وقالت:

_ العاقبة لك عندما نشتري ذهبك وكل جهازك، فلتُخطَبي أنت، واتركي الباقي علينا ..

_ وهل أنتظركِ أنتِ لتشتري لي ذهبي حين أخطب، أم أن من لا تُخطب ليس لها الحق في شراء مثل هذه الأشياء، أجبتها إجابة ظلت مكتومة في صدري.

تزوج أخي وما قدمته من اهتمام لأختي أثناء فترة حملها وولادتها أعدته بحذافيره مع زوجة أخي رغم أنها كانت سليطة اللسان معي ومع أمي، كانت تظن أنني سأنكد عليها عيشها مع زوجها فاختارت مبدأ الهجوم منذ البداية، أنا في داخلي لم أكن ملاكا طبعا كنت بين الحين والآخر أحسدها حين أراه يضع يده على كتفها كي يواسيها إذا شطفت البيت أو غسلت للصغار وهو يقول لها بحنان وحب "يعطيك الصحة" أو يصطحبها بين الحين والآخر في نزهة إلى مكان منظره خلاب أو إلى أحد المطاعم كمكافأة على تعبها تنسيها الإنهاك...

أنا كان علي أن انتظر زوجي ليقول لي "يعطيك الصحة" ويصطحبني للبحر الذي يشرح منظره صدري ويزيل عني مرارة الوحدة وسقم عدم الاهتمام أو أن أقولها لنفسي، وقد اصطحب نفسي بنفسي إلى حيث شئت لكن ذلك يبقى في أحلامي...

السنون تمضي وبدل أن يأتي اليوم الذي أحمل فيه ابني مثلما حملت أبناء أخويَّ إلى صدري وأرضعه حناني وشوقي وأحكي له عن لوعة انتظاري، سبقه زائر استكان فجأة على نهدي اليمين ليئد غريزة الأمومة قبل أن تستعر، هذا الزائر لم اعمل له حسابا يوما، لا أنا ولا من

كان يقلقه وجودي داخل بيتي، زائر لن يخرجني من منزلنا فحسب بل سيبعدني عن هذه الدنيا ليرتاح كل المجتمع الذي كنت عبئا عليه وينقص رقما من تلك القائمة التي أُلصقت أسماؤنا على ظهرها عنوة فأكتب بمشيئة خالقي على قائمة مرضى السرطان...

أخيرا ستتوقف أمي عن الدعاء لأجلي في كل صلاة أو ربما ستدعو أكثر من ذي قبل، لكن كي يكون عرسي في الجنة - أعرف أن حسرتي لن تزول من قلبها-.

طوال الفترة التي تبنته فيها عملت جاهدة على كتم السر الوحيد الذي يسكن صدرها حاولت دفنه وردمه جيدا، غطته بغبار سنواتها مخافة أن يصعد يوما ما لرأس لسانها ويفضحها، وحتى لا يُحمَّل صاحب هذا السر عبء حياة لم يخترها لنفسه وكي تجنبه عناء البحث بين القبور عن مرقد لوالده أو والدته قررت أن يكون صدرها مرقدا لهمومه وقلبها متنفسا لنجواه وشجونه، وبدل أن تتركه يضيع بين الوجوه بحثا عن وجه يرى فيه بعضا من شبهه، فيخمن بينه وبين أمانيه أن يكون وجها لأحد أصوله قرَّرت أن تعفيه من التشتت وأن تبعده عن تيه روحه ليكون محياها قبلته الأولى والأخيرة.

حاولت قدر حبها الذي استكان في قلبها لأجله أن لا تخبره أنه مجرد "ايكس" في هذه الحياة، بالرغم من أنها كلما حملقت في عينيه تذكرت جيدا تلك الليلة الشتوية التي وجدته فيها رفقة زوجها في إحدى حاويات القمامة ـ حين كانا يتجولان بلا عنوان-، كان الصراخ المتواصل يعلو كلما اقتربت وزوجها من تلك الحاوية كأنه عمدا يستدرجها إليه، أو كأنه يريد أن يدلَّها عن مكانه عن طريق هذا الصراخ الذي يثقب الآذان والذي لا يملك وسيلة غيره لطلب النجدة واستجداء العطف، عجلت السير نحوه وهي لا تصدق أذنيها، انحنت في وجل للحاوية تكذِّب عيناها اللتان كانتا فزعتين وفرحتين في آن واحد. فكانت كمن يختلط عليه الحلم بالواقع في غفوة تأتي بغتة ولا يدري صاحبها إن انتهت واستفاق أو لا زال يتخبط في تفاصيل فُرِضت عليه..

ثيابه الرثة لم تكن في حقيقة الأمر سوى قطعة قماش تشبه إلى حد بعيد قطع الستائر التي طال استعمالها وفقدت لونها وبريقها مع الزمن، كانت تغطي جسمه بالكامل غير أن الجهة السفلى استحوذت عليها كمية لا بأس بها من فضلاته واخترقت الغطاء، وجهه الصغير يشع احمرارا ليس فقط لأنه رضيع في يومه الأول أو الثاني ولا لأنه بكى كثيرا من شدة جوعه وعطشه ولم يجد من يستجيب لمطلبه، بل كانت تلك الحمرة التي صبغت وجهه سببها الخجل مما اقترفه والداه فكان هو ثمرة منبوذة أتى بها لقاؤهما العفن.

أمه وخوفا من فضيحة ستحصدها وحدها بعدما زرعتها مع رجل مستهتر ـ لا يعرف للرجولة مسلكا ـ وبضغط من أهلها الذين هددوها بالقتل ولِمَحو العار بعدما جلبت لهم فضيحة تطأطئ لها الرؤوس وتندى لها الجباه قررت رميه في إحدى الحاويات على قارعة طريق ربما لم تزرها في حياتها سوى ذلك اليوم، ومن المؤكد أنها لن تزورها أبدا بعد ذلك اليوم أيضا خوفا من أن يتذكرها العار كلما مرت به.

بينما أبوه الذي كانت له عدة خيارات وحلول والتي أهمها رغم مرارته بالنسبة له الاعتراف بخطئه وضمه هو وأمه لحضنه بطريقة شرعية تجعل الشمل يُلم ونار الفضيحة تنطفئ غير أنه اختار خيار الصعاليك مثلما كان حبه منذ البداية حب صعاليك.

قرّرت أن تتفادى الزج به في مخافر الشرطة كي لا يدخل في تحقيق مطول منذ أول يوم يأتي فيه لدنيا هو فيها مجرد مسافر ضال، كما أنها لم تشأ القبول بتسليمه لدور الطفولة المسعفة فقلبها لن يحتمل أن يشار إليه بأصابع الريبة والاتهام بسبب ذنب لم يقترفه فيعيش بمستقبل مجهول يرافق اسمه لقبا مقيتا مجردا من جميع الأحاسيس والمشاعر الإنسانية...

كي لا يحدث كل ذلك ابتسمت في وجه زوجها ليعرف أنها تعلقت بالولد الذي لم يشأ لهما القدر في أن يكون رحمها منبته، انتظرت الصباح بلهفة الطفل ليلة العيد لتسجله بطريقة شرعية على اسم عائلتهما، لم يفكرا كثيرا فالبيت مكتفي وقادر على إعالته رغم بساطته ودخله المحدود، أما الاسم فهو حاضر كونه مخبَّأً منذ زمن طويل، كل ما عليهما فعله هو أن يسجلا هذا الطفل في دفتر عائلتهما الذي انتظر طويلا قلما يرفع ليزين أحد صفحاته باسم ولد يُغني بقية الصفحات عن الانتظار.

ولأن المثل الذي صادقت على صحته ومصداقيته حوادث الزمن يقول *"إن الأم ليست من تنجب بل من تربي"* فقد كانت له هذه المرأة نعم الأم وهي تلقنه نِعَمَّ الأخلاق والتربية. رافقته خطوة بخطوة بعدما اطمأنت إلى أنه أصبح ابنها رسميا وسلّمت أنه لم يلمحها أحد تلك الليلة.

سعادتها كانت تكبر يوما بعد يوم وهو يكبر أمام عينيها فكانت معه وهو في المهد يبكي دموعا تحرك فيها الألم، وهو ينغو بشتات كلمات تبعث في قلبها النشوة، وأسنانه تشق طريقها داخل فمه تعكس ابتسامة تربو وتتغير بين شفتيه لتعشق هي فيما بعد هذه الابتسامة التي باتت تطبع وجهه وهو يدخل المدرسة، وهو يزف لها الخبر الدائم المتمثل في حصوله على علامات عالية في المدرسة، وهو يدخل الثانوية وينجح فيها بعلامات مشرفة، وهو يدخل الجامعة ويواظب على دروسه باهتمام وانتظام حتى أتت لحظة تخرجه التي أثلجت صدرها وهي ترى زرعها ينمو ويربو ليكون بذرة طيبة وها هي اليوم تشاهد تلك الوردة التي انبثقت من المزبلة تتفتح أمام عينيها، أفرح قلبها كثيرا بمعاملته الطيبة والحسنة معها وكأنه يكافئها على ما قدمته له دون أن يدري ما تخفيه فكانت دائمة السعادة غير منقطعة الشكر للمكافأة.

ومع منغصات الحياة التي لا تنتهي والتي تأتي من حيث لا ندري ولا نحتسب، فإن بذرتها الطيبة التي رعتها قد جاء الوقت غير المناسب لاقتلاعها بطريقة همجية وغير مناسبة بسبب الضمير الذي يكون في سبات عميق ثم يستفيق على حين غفلة في الزمان والمكان الخاطئين.

فوجئت ذات يوم برجل استفاق ضميره الذي كان مطمورا ليعذبها بدق باب بيتها الهادئ الوديع بعدما اهتدى لبيتها عقب تحريات بدأها من أحداث تلك الليلة التي ظنت أن أحدا لم يلمحها فيها وأن السر كان سجنه قلبها وقلب زوجها الذي ودعها إلى مرقده الأخير منذ سنوات قليلة، كان هذا الرجل صاحب القلب غير الساكن يبحث داخل أسوار بيتها الساكِن عن ابن كان مأواه منذ قرابة ربع قرن حاوية قمامة، وكي يبرئ ضميره من ثقل ذلك الماضي العفن أتى ليلقي به في مستقبل ابنه وقلب من رعته..

الأرض ليست لمن يخدمها

" لا شيء أقسى على الروح من رائحة الأحلام وهي تتبخر"

محمود درويش

كما يخلف الرسام الذوق الفني لأبنائه ويلقنهم تناغُم الألوان وانسجام الأشياء، فإن الطبيب أيضا لا يفتأ يعلم أولاده أسماء الأدوية وبعض استعمالاتها وكذا مدى جدواها وفعاليتها، والمعلم بالمثل يقضي حياته بين الكتاب والقرطاس فلا يكون من أولاده سوى تعلقهم بما ألفوا عليه أباهم في أغلب الأحيان، والأمر نفسه بالنسبة لهذا الفلاح الذي خلف له والده بالإضافة إلى قطعة ارض يرثها حبا سرمديا يربطه بها، وكانت هذه القطعة الأرضية بالنسبة له الكنز الذي يختزل في قيمته العالية ماضيه وحاضره.

عمل ما بوسعه ليحافظ هو الآخر على هذا الكنز ليكون المستقبل الذي سوف يورثه لأولاده فيرثون حبها وتستمر عجلة الإرث المعشوق في الدوران.

كانت رزقه فمنها يطعم زوجته وأولاده ومن الخيرات التي تهبها له والتي يبيعها يكسوهم ويسد فجوة احتياجاتهم، أما عشقه لها فلم يكن لأنها كانت ولا تزال تسد رمق مطالبه ومطالب عائلته فحسب وإنما لأشياء غير مرئية لغيره أو ربما يرونها لكنها تبدو بسيطة جدا بالنسبة لهم.

كانت بالنسبة له بلسم الحياة، فالجلوس تحت ظلال أشجارها الوارفة صيفا للأكل من خيراتها يغني نفسه عن جل أيام الاصطياف ورحلات الاستجمام الرائجة لدى أبناء جيله، يتنقل بشغف بين خضرواتها ليقطف ويغسل من ماء البئر التي تتربع وسطها، يأكل بنهم وشغف خضرواتها التي تهديها له بسخاء هذه الأرض المفروشة بحبه وحب أجداده، جلسة الأكل هذه أحب إلى قلبه من مائدة مصطفة بأجود أنواع المأكولات وأبهى الأطباق المرصوفة، حتى القيلولة التي يأخذها عقب كل وجبة أكل أو بعدما يحس بالتعب ينخر جسده الذي وهبه لها هي إلى قلبه أحب من النوم على سرير مخملي مع أنه لم يجرب في حياته الطاولة المصطفة بأبهى الأطباق وأشهاها ولا السرير المخملي ومع ذلك ما يفتأ يردد هذه العبارات أمام أولاده وكل معارفه ـ الذين لم يستطيعوا أبدا حساب مقدار الحب الذي يكنه لهذه الأرض ـ وأمام زوجته التي تبتسم في إشارة للموافقة القطعية لتزيد بذلك من سروره وغبطته.

هذه الأرض حتى لو بخلت عليه أو تمنعت عن إعطائه منتوجا بقدر تعبه عليها أو حبه لها وتعلقه بها على الأقل غير أنه يظل يختلق لها أعذارا كعاشق لا يرى في معشوقته ذرة نقص...

عشقه وولعه بالأرض تحكيه التفاصيل الدقيقة لنمو أشجاره وزرعه لحظة بلحظة.

_ سنتظلل تحت هذه الشجرة بعد خمس سنوات وسوف تغطينا شتاءً أو في أي وقت تنزل فيه الأمطار دون سابق إنذار، أعدكِ بذلك أنتِ فقط اطلبي من الله أن يمدَّ في عمرينا لنرى ذلك اليوم عن كثب...

-إن شاء الله، فليمد الله في عمرك وتغرس أكثر وأكثر.

_ أتعلمين أن محاسن غرس شجرة أزلية فرسولنا الكريم يقول: *"ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة ، و ما....*

وقبل أن يكمل تتولى هي "زوجته" إكمال الحديث عنه بصفة آلية: *"... وما سرق منه له صدقة، و ما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، و لا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة"* حديث شريف

ثم تميل برأسها عليه حتى يكاد يلامس كتفه وهي تستطرد مبتسمة: نعم أعلم، وبالنسبة للحديث فقد حفظته عن ظهر قلب بعد عقود من الزمن قضيتها معك ومع ضرتي التي بتّ أحبها لأجلك... الأرض.

في كل فصل هو مرأى وحديث لكل الأعين، يركض من بائع فسائل إلى آخر يتحرى عن آخر ما جادت به التهجينات ويبحث عن أجود ما يمكن أن يليق بأرضه المدللة...

لينطلق الاهتمام المنقطع النظير مع وضع الشجيرة في حوض الغرس الذي يملؤه خصيصا من تربة أرضه وكلما ظهرت الحشائش والنباتات الضارة يلعنها دون انقطاع كما لا ينقطع عن توبيخ نفسه بعد ذلك إذ كيف استطاعت مغافلته والظهور على السطح رغم تفانيه في مراقبتها وحرصه الشديد الذي لا يترك لها مجالا للتفكير بالظهور أساسا ... فكانت نشوته تتضاعف إذا لم يكن هناك ظرف طبيعي أو غير ذلك يعرقل نمو ما يغرس...

اليوم زاد طول الشجرة التي تقع في الجهة السفلى المقابلة للوادي، البارحة فقط تلك الشجرة التي على يمين الطريق انبتت، لقد بدأت فاكهتها تظهر للعيان وتنافس الأشجار الأكبر منها بسنوات، "كيف للمرء أن يحظى بجنة كالتي وهبني إياها الله ثم يهجرها؟" يتساءل بينه وبين

نفسه ثم يعيد ربط تفكيره بالأشجار، متى أجلس تحت تلك الشجرة مثلما أجلس اليوم تحت هذه التي غرستها منذ مدة بيديَّ هاتين؟

_ ألم أقل أنها جنة أنعم بها الله على أبي ومن قبله أجدادي وعليّ حين أورثوني إياها؟

انتهى من عمله في إحدى أمسيات يوم قضاه كعادته في خدمة أرضه، كان سرحا بتعبه اللذيذ يمسح بنظرات عينيه المتلألئة منظرها، لم يعِ لنفسه إلا وصوت ابن جاره يلفت انتباهه وهو يخترق صمته ويتجاوز باب مزرعته ليسلم عليه، بعد تبادل التحية والسلام والسؤال عن الصحة والأحوال طأطأ الشاب رأسه قبل أن يقول:

_ هناك خبر ليس بسار يا عم.

_ خير إن شاء الله.

بعد صمت لا يدري إن كان عليه قول ما جاء لأجله أو تأجيله لأجل غير مسمى، رمقه بنظرة شفقة استجمع قواه ثم استرسل:

_ ستنشئ الحكومة طريقا وطنيا وسيربط بين ولايتنا وولاية.....

_ و أين المشكل في هذا يا بني، منذ الاستقلال والطرق تشق ما الجديد في ذلك؟ قاطعه متعجبا.

_ الجديد، الجديد أن أرضك يا عم هي ضمن التحصيص الذي قامت به الدراسات، والطريق ستمر من هنا... وأشار بسبابته إلى رقعة الأرض.

_ لم افهم، بالرغم من أن كلام الشاب واضح ولا يشوبه أي غموض مبدئيا غير أنه لم يستطع استيعابه.

_ أرضك هذه التي أمامك هي ضمن مشروع ضخم لعمل...

_ أنت تمزح؟ قاطعه كالعادة ليسأله بارتباك.

_ لا، للأسف، كنت أتمنى أن تكون مزحة حتى لو كانت ثقيلة ولكن بصفتي مهندسا فقد اطلعت على المشروع وأردت أن أخبرك من الآن حتى تأخذ احتياطاتك و...

ولكي يصبره بعد أن رأى الدم قد أُمتص من وجهه وأطرافه، وقطرات العرق بدأت تتصبب في غير فصلها، صمت برهة غير بعدها من نبرة الكلام السابق وأردف قائلا: يا عم، ليست أرضك الوحيدة التي ستدخل في مشروع الطريق الوطني هذا، كما أن الدولة ستقدم تعويضات لكل الفلاحين والمستثمرين الفلاحيين أصحاب الأراضي التي سوف تطالها أشغال المشروع...

_ تعويض، تعويض عن ماذا؟، وبدأ صوته يتضخم ويعلو، أي ثمن يمكنه تعويض تتبعي لمسار شجرة واحدة كي أراها تنمو وتصبح بهذا الحجم، أو هذا، أو ذاك وأخذ يهرول بين أشجاره مثل المجذوم، توقف كمن يتذكر شيئا في غاية الأهمية فأمسك بقميص المهندس من الأمام بكل ما أوتي من غضب والدموع قد اكتسحت عينيه:

-أي ثمن يمكنه أن يشتري روحي، هذه الأرض روحي، أتفهم؟ كيف سأعيش بدون روحي؟

اختار المهندس أن يسحب بقايا نفسه "المشتتة حزنا أمام هول المنظر" بعدما أفلته هذا الفلاح الذي لا يحسد على ما ألم به وأسرع الخطى للخروج وهو على يقين بحجم المأساة التي نقلها إليه، أما العجوز المنكسر فقد ارتمى على الأرض كحصان عربي أصيل حضرت كبوته أخيرا، وأخذ يلهث وصوته يعلو انتحابا يشق هدوء الجو...

قرر أن لا يستسلم وأن لا يسلم أرضه وأرض أجداده، قرر أن لا يتنازل عن ماضيه وذكرياته بهذه البساطة، عن أيامه الجميلة، عن رائحة التربة والشجر والثمار والورد أن لا يتخلى حتى عن الأعشاب الضارة التي كانت تزعجه والنمل الذي كان يتسلق شجره والذي كان يبعث الأرق في عينيه كل ليلة ليجعله يفكر كثيرا كيف يقضي عليه، اعتزم أن لا يتنازل عن كل هذا أن يقاتل ويضحي مهما كلفه الثمن.

بعدما قضى ليلة بيضاء التسمية سوداء الفحوى، وبعدما لم تفلح كلمات زوجته الطيبة في التهدئة من روعه ولا ابتداع عبارات تصبره أو تعزيه في مصابه، انطلق مع الصباح الباكر مثقلا بهم لم يكن في الحسبان وبملف أصفر اللون بالي المنظر يثبت ملكيته لهذه الأرض، هذا الملف المخبأ في بيت العائلة منذ أمد لا يدري مدته لم يكن يعلم انه سيخرجه يوما ما وينفض عنه غباره فالكل يعرف أن هذه الأرض مُلكه أبا عن جد، وهي معشوقته قبل كل معشوقة، اليوم يجد نفسه مضطرا لإخراجه من اجل إنقاذ حبيبته ممن يريد اغتصابها بحجة التمدن.

تآكل حذاؤه البسيط في التنقل من مكان لمكان ومن إدارة إلى إدارة لكن دون جدوى، القرار قد صودق عليه بعد دراسة دامت لوقت طويل والأرض أصبحت ملكا عاما بعد أن أعطوه وصلا من أجل قبض تعويض مادي...

بعد عزوف دام طويلا سحب أخيرا بذلك الوصل النقود التي عرف الجميع أنها تعويض عن أرضه غير أنه ضل الوحيد الذي لم يستطع استيعاب نوع التعويض ولا ثمنه الذي يتحدثون عنه.

جلس أولاده ذلك المساء فرحين بذلك الثمن المقبوض والذي سيستغله كل منهم في مشروعه الخاص وكان بين الفينة والأخرى يسمع شظايا جمل وعبارات تصدر منهم تعجبا واستفسارا:

"أيعقل أن تكون أرضنا سخية وذات أهمية لهذه الدرجة حتى تدفع لنا الحكومة مبلغا بهذا القدر؟!"

"ونحن الذين كنا نحسب أنها أرض بلا فائدة، لا تسمن ولا تغني...".

راح كل منهم يخطط ضاحكا مستبشرا فكان ضجيج أصواتهم ولغط فرحتهم يشق صدر ذلك العجوز المسكين الذي هرم وشاخ فجأة، فابيض شعره، وبانت التجاعيد على محياه أكثر من أي وقت مضى.. جلس القرفصاء منفردا بنفسه عند نافذة تطل على معشوقته، وهو يمضغ الوجع ويتلوّى من ألم فراق جعل دموع حسرته حبيسة عينين كان نورهما تلك الأرض.

انتظار

بعد أن قرأت في كتاب "قيس، ليلى والذئب" * والذي أعادت قراءته عدة مرات لفرط إعجابها وتعلقها بالكلمات والمشاعر التي صيغت بها قصة "لعبة السعادة" تحديدا عن تلك المرأة التي اهتدت إلى فكرة أنها *"في كل مناسبة سعيدة، كانت ترسم وجها ضاحكا على قصاصة ورق، وتخبئ قصاصة الورق في قنينة زجاجية، وتخبئ القنينة الزجاجية في أحد أدراجها، مع صورة لحبيبها وزوج أقراطها...*

لم تفوت أي مناسبة، سواء تلك الكبيرة (كحفل زفاف) أو البسيطة (كنزهة الشاطئ)، فكل المناسبات السعيدة جديرة بالتوثيق، وأهل بالذاكرة، ومحفوظة في قنينة زجاجية، في آلاف الضحكات الورقية.

وهكذا، مع كل مناسبة حزينة، كانت تفتح القنينة الزجاجية وتهزها في الهواء لتتساقط القصاصات على رأسها كندف ثلج ويمتلئ الفضاء برنين الضحك القديم..."

وهكذا، قررت أن تحذو حذو هذه المرأة وهي تنتظر عودة خطيبها البعيد عنها، الذي طال انتظاره وهي ترقب حضوره بعد أن طلبها للزواج قبل أن تخطر فكرة السفر في رأسه، لتستكين الفكرة اللعينة في رأسه فيما بعد ويعمل جاهدا على تنفيذها، لكنه قبل الذهاب وتنفيذ فكرته أودعها وعدا بالعودة ليجمعهما عش زوجية سعيد، خبأت صورته التي يظهر فيها مبتسما لأجلها وساعة أهداها إياها عند أول لقاء كان بينهما، والذي كان منذ سنوات

طويلة، وأضافت لهما الكثير من الذكريات التي رسماها معا، وكمًّا غزيرا من الأحلام التي وعدا نفسيهما بتحقيقها سويا، بعد سنة فتحت القنينة فوجدت الصورة ثابتة والذكريات لا زالت كما هي، بينما أحست في قرارة نفسها أن الأحلام بدأ هو بالتنازل عنها، في حين بقيت هي وفية لها في انتظار تحقيقها، بعد سنة أخرى ظلت الصورة ثابتة أما الذكريات فقد قرر تجديدها مع أخرى بعد أن أهدى الأحلام لمن لا تجيد الانتظار أو بالأحرى لا تعرفه...

بعد سنة ثالثة، ورابعة، وخامسة، وبعدما استفاق لضرورة رجوعه، عاد بالندم يغلف قلبه ليجد نفسه مضطرا لفتح القنينة وحيدا، لم يعثر سوى على صورته باهتة فقدت ألوانها وبريقها إذ أنها كانت مع كل انتكاسة تسكب عليها دموعا يقذف بها وجعها، بينما ضلت الساعة التي كانت إلى جانب الصورة ثابتة لتلدغه عقاربها دائما وأبدا...

إنه رجل

تذهب دون سابق إنذار إلى بيت أهلها كلما انتفض زوجها وحوَّل ـ في رمشة عين ـ محتويات البيت إلى هشيم، ثم ودون أية مماطلة أو تفكير منه يبدع في تلوين وجهها بالبنفسجي والأحمر، حين تنهي شكواها التي بثتها للتو لأمها لا تجد هذه الأم المغلوب على أمرها أية عبارة تصلح للموقف سوى عبارة "انه رجل" ، فالرجل الشرقي من هذا النوع إذا انتفض كسر أثاث بيته وإذا لون بدأ بوجه زوجته...

هذه العبارة لم تمتص غضبها ـ كما تمنت أمها في سرها ـ وهي ترميها على سمعها ولم تكبحه أو تخفف منه أيضا بل أطلقت داخلها شرارة غضب مثل كل مرة جعلتها تمقتها أكثر وتلعن وضعها أكثر، فهي تعلم أنه لم يوصلها لهذا الوضع المزري سوى هذه العبارة ومثيلاتها... حين بدأت تعي الدنيا تيقنت أن كل ما كان يدور حولها يروج لها أو يخدمها بمعنى آخر، الكل يهلل ويكبر لها بأهازيج لا يتوقف إيقاعها أبدا تشبه في إزعاجها إلى حد ما إيقاعات الطبول الإفريقية.

هي لن تنسى غبطة اليوم الذي كان يزداد فيه مولود ذكر في العائلة وتلحظ العناية المبالغ فيها للرضيع وللأم التي أنجبت هذا الرجل الصغير فبسمة الفخر تلك التي ترسم تلقائيا على محيا الجد والجدة والأقارب لا يمكن لأحد نسيانها... ولن تمحي من ذاكرتها بالمقابل النظرة المؤنبة

للأم التي أتت بمولودة "بنت" وزجرها بنظرات عاتبة وقد يتعدى الأمر إلى رشقها بكلمات جارحة.

لن تسامح المجتمع الذي اختار لها زوجًا يفتقر لكل صفات الرجولة بمجرّد أن تجلّت أَمارات أنوثتها، المجتمع الذي أغراها بالقبول والسكوت عن أبسط حقوقها الشرعية، لأن الأعراف شرَّعت له إهانتها وحتمت عليها احترامه والصبر على أذاه...

أبوها رغم وصوله للبيت ذلك المساء منهكا بأحمال يومه، متعبا كالعادة ورغم حبه لها وإشفاقه عليها لدى رؤيته للكدمات التي أدمت قلبه بعد أن أدمت وجهها، إلا أنه وقبل أن يستريح دخل في مفاوضات مستعجلة معها من أجل إقناعها بالرجوع لبيت زوجها قبل أن تكبر المشكلة وتتضخم فيطلقها زوجها ويصبح أطفالها يتامى رغم أن أبوهم لا يزال على قيد الحياة.

أوصلها لبيت زوجها مع اعتذار مطول قدمه له، قبله هذا الأخير بتململ ثم سمح لها بالرجوع فكان كمن يضيف لأغراضه شيئا هو في غنى عنه ...

في الماضي حاولت كثيرا الانتفاضة، وتمزيق عرف هذا الرجل الذي نحته المجتمع تمثالا يتباهى به وعبده في كل الأوقات، نددت وأعلنت العصيان والرفض وهي لا تزال في بداية شبابها وفي سنواتها الأولى من الزواج، ثم مع تزايد قوة اللكمات تناقصت وتيرة الرفض حتى وصلت كهولتها أين أصبح جسدها منهكا غير قادر على تحمل لكمات أخرى وأصبح عندها كل رفضها داخلي، لا يملك الجرأة على الانبثاق خارج حدود حنجرتها التي أطبقت عليها الإحكام...

في شيخوختها وحينما أتت ابنتها تشكو لها زوجها الذي لون جسدها بتلك الألوان التي صبغتها هي الأخرى في أيام مضت من حياتها، تطلعت في محياها، ثبتت نظرتها الثاقبة على عيني ابنتها وقالت لها بثقة صقلتها السنون: "إنه رجل" ...

الجوع كافر

أنا مش كافر بس الجوع كافر

أنا مش كافر بس المرض كافر

أنا مش كافر بس الفقر كافر والذّل كافر

أنا مش كافر

لكن شو بعملك إذا اجتمعوا فيّي

*كل الإشيا الكافرين**

مقطع من أغنية لزياد الرحباني

بعد استيقاظه من نومه المؤرق، وقبل أن ينصرف إلى حيث لا يعلم التفت إلى طفليه المتجمدين في ثيابهما البالية الباهتة اللون قرب مدفئة صغيرة أكل الصدأ ظاهرها ولم يبق فيها ذلك الصباح ككل صباح سوى بضع جمرات باردة، كانا ينتظران أمهما كي تعد لهما طعام الفطور الذي نادرا ما يُشبِع بطنيهما الصغيرتين، في حين تقصّدت هي - وبما أنه يوم عطلة - الإطالة كالعادة في مثل هذا اليوم حتى تكون الوجبة مشتركة تتوسط الفطور والغذاء كإجراء

اقتصادي تُشكر عليه… تنهد حين انتبه إلى أنه أطال التحديق في هذين الطفلين، ابتسم لابنته وبصورة تلقائية سألها:

ـ ماذا تريدين أن أحضر لك معي مساءً؟

طأطأت رأسها الذي يعلوه شعرها المنكوش والذي أضاف لوضعها المزري لمسة أخرى من لمسات الفقر والأسى ودون أن ترفعه بعدها لتجيب واصل كلامه: اطلبي يا صغيرتي، أنا جاد هذه المرة أعدك..

هذه الكلمات جعلتها ترفع رأسها وتحدق في ملامحه بعينيها الصغيرتين اللتين اتسعتا فجأة، ثم قالت أخيرا بعدما صدَّقت الوعد ـ مثلما جرت العادة ـ : أريد أقلاما ملونة كثيرة أتباهى بها أمام صديقاتي، إنهن يرسمن ويلوّن طول الوقت، في حين أرسم أنا وألون في رأسي فحسب.. مدت شفتيها إلى الأمام قليلا حين فرغت من كلامها…

ابتسم وقال: لكِ ذلك، ثم ماذا؟

ـ غدًا يوم الأحد وأريد مأكولات لذيذة بعد عطلة نهاية الأسبوع، أريدها أن تكون لمجة تغنيني عن سؤال زملائي أو مسح لعابي وهم يأكلون…

اقتحم الحوار الابن الذي يكبر أخته بسنتين ويرتاد نفس مدرستها: لو أنك تشاهدهم يا أبي، كل يوم أكلة جديدة، وكأن لديهم مخازن لا تنفذ من المأكولات الطيبة، سكاكر بشتى أنواعها، شكلاطة.. تنهد ثم أكمل: ما نأكله أنا وأختي في مناسبات حصرية يأكلونه يوميا وبكميات عجيبة، صديقي وائل يحضر يوميا.. تدخلت أخته قبل أن يبدأ في مدح ممتلكات صديقه

المترف لتستحوذ على الحوار من جديد وتضيف: صديقك لا شيء أمام صديقتي فرح... قاطعهما بصورة مباغتة كي يفض ما بدأه وحتى لا يصل به المطاف إلى الدخول في متاهة هو في غنى عنها تنتهي عند ضرورة مفادها أن يفسر لهما معيار تقسيم إرث الأرض على سكانها، وعن الأساس الذي يولد فيه أمثال وائل وفرح أغنياء في حين يولد هم وأمثالهم فقراء... اختار أن يقول لهما نحن أغنياء بالصبر، لكن حتى هذه لن يفهمانها ربما ليست صادقة بالقدر الذي يمكن تصديقها، وحتى إن فهما المغزى المطلوب فما الفائدة المرجوَّة من ذلك؟ سحب الجملة من رأس لسانه، سيقول لهما أن الغد أجمل والسلام، هكذا حسم الحوار المتضارب داخله وهو يمضي حاملا غصة في صدره تاركا وراءه دخان قلب أحرَقه نُقص الحيلة...

كل أمله كان أن لا يتقاطع بزوجته، أن تكون منهمكة فيما يشغلها عن رؤيته ويجنب كلاهما رؤية الآخر وهو يغادر المنزل... لكن حتى هذه لم يكن له فيها الحظ الكافي لينالها، وجدها عند الباب وشرارة الغضب تتطاير من عينيها اللتين كانتا موطنا للرقة والعذوبة قبل أن يسوء وضعه لهذه الدرجة .. كانت منهمكة في شطف الماء الذي فاض عن أواني المطبخ التي وضعتها ـ كما تفعل في كل ليالي الشتاء ـ تحت السقف لتكون هدفا للقطرات المنهمرة من ثقوبه بدل أن تنزل مباشرة على الأرضية، لكن لحظها السيئ فهذه الأواني لم تعفها من هذا المشهد المكرر عند مطلع اليوم التالي، قساوة في الخارج وقساوة أكبر داخل البيت تمتم بعدما اختلس النظر خارج باب الغرفة التي لا يمتلكان غيرها مع مطبخ يشبه قن الدجاج...

ـ لم تخبريني بالذي نفسك به اليوم؟

ـ إلى أين؟ سألته بنبرة حادة جعلت حروف سؤاله تتناثر.

لم يجب، فقط تسمر كتلميذ يتظاهر بأنه يعرف إجابة السؤال لكن العتب على ذاكرته سريعة النسيان، هو المسكين كان العتب على قلة حيلته...

أما هي فأردفت:

ـ ممم ما كان علي أن أسألك إلى أين... أكيد لن تكون وجهتك إلى شركة ورثتها عن أبيك أو مصنع خلَّفته عائلتك... طبعا لبؤس حظي هم لم يخلفوك سوى الهم ولم يورثوك سوى فقرا أشبعني جوعا وذلا...

أراد أن يسألها عما أورثتها عائلتها غير لسانها السليط إلا أنه تذكر كالعادة أن وضعها معه هو ما حرر لسانها وأطلق العنان لسلاطته، مد رجله خارج عتبة البيت وهو يتمنى في داخله لو كان رجلا شديدا بما يكفي للطمها على الأقل، لكن يكفيها لطم الدنيا وصفعها لها، ليس لديه الوقت سوى للابتعاد عنها والتسكع بأفكاره بينه وبين نفسه...

في الطريق كان مشتتا كبوصلة فقدت زر تحديد الجهات، كمسافر فقد دليل إرشاده في صحراء قاحلة واختلطت عليه السبل فجأة، هو لم يكن مطمئنا مثل ذلك المسافر قبل فقده للدليل... وسبيله يعرفه اليوم لقد فكر به طيلة الليلة الماضية، كان يرتدي معطفا في الماضي كان لونه أسودا أما اليوم فحتى خبير الألوان سيعجز عن تصنيف اللون الباهت الذي أضحى عليه، حذاؤه كان مثله تماما، فاتحا فمه لهذه الدنيا في انتظار الفرج، كانت لفحات البرد القارص هي ما جعلته مستيقظا رغم أنه لم يغمض له جفن في الليلة الماضية التي قضاها في التفكير...

منذ مدة وهو يشحن رأسه بقائمة متطلبات أولاده وزوجته، يتسكع طول اليوم ليعود مساءً خاوي اليدين ممتلئ الصدر حنقا، قبل أن يتنبهوا إلى حيلته كان يستمتع بلعب دور الغني،

كان يملأ قائمة المتطلبات عن آخرها ويذهب إلى حيث يشتري الأغنياء مول كبير وجذاب يتسمر أمامه طويلا وهو يتساءل كيف يمكن أن يتواجد كل هذا الخير وأن لا يكون لنا نصيب منه؟ كيف تخطئنا رزنامة الحياة الرغيدة وتهمشنا لهذه الدرجة وبهذه العنجهية؟ كان يأتي لهذه الأمكنة كل يوم سبت، لديه كل الوقت غير أنه يفضل يوم السبت ليمشي على درب الموظفين ويمني نفسه بعطلة مثله مثلهم، في كل شيء بخلت عليه الدنيا ماعدا الوقت، يدخل المتجر يجر سلة تنتحب أوصال قلبه وهو يتقدم بها، يضع فيها كل المواد الغذائية التي تحتاجها أسرته لا يسرف هو كثيرا إذ يتغاضى عن الكماليات فقط يلتقط منها على عجالة كيس مكسرات يسهر به مع زوجته، يعيد جر سلته إلى المحاسب ويقف في طابور صغير منتظرا دوره، حين يأتي دوره يعتذر عن نسيانه حقيبة النقود، يعتذر للمحاسب ويعيد المواد إلى مكانها، ثم يخرج من المتجر منتشيا فقد كان للتو يتسوق مثلما يفعل أي إنسان عادي على وجه هذه الأرض... تطور به الأمر بعد ذلك إلى استبدال هذه العادة بعادة أخرى يجب أن لا يكون أنانيا ويفكر في نشوته الخاصة فحسب، عليه أن يوفر فعلا ما يحتاجه أطفاله، عقله ليس مشلولا مثلما هو حال يده اليمنى وعليه يجب أن ينشطه، صار يمد يده بين الحين والآخر للمنتجات ويدس بها تحت معطفه البالي، بعد مدة تنبه عمال المتجر لنقصان المواد وفي الحقيقة كانت كاميرا المراقبة هي من أخبرتهم بذلك، حصل على بعض الركلات واللكمات مع عبارتي لص ومحتال اللتين التصقتا به مدة طويلة، التزم على أثر الحادثة البيت لمدة أيام كانت العبارات التي يقذف بها لسان زوجته السليط أقذع من عبارتي لص ومحتال.

ينتظر صدقات الناس التي يمنون بها عليه وعلى أسرته بين الفينة والأخرى، تلك الصدقات التي تكون عادة زائدة عن متطلباتهم، يكون هو في أمس الحاجة إليها.. كما أنه يعمل بين

الحين والآخر على تنزيل أكياس الإسمنت بيده السليمة وحين ينال منه التعب يتوقف ليقبض أجرا زهيدا يجعله يداوي شيئا من وجعه على الأفواه المفتوحة التي خلفها وراءه...

اليوم هو يعرف وجهته، إلى باب الجامع، نعم إلى هناك أكد لنفسه، سيجد نفوسا مؤمنة ترحم قلة حيلته، ترثي لشلل يده، ورداءة ملبسه، لا يهم أي جامع المهم أن يكون الأبعد عن حيهم، لا يريد أن يلتصق به لقب متسول، وصل قبل سويعات عن آذان الظهر أمام الجامع الذي اختاره جلس ينتظر بداية توافد المصلين، وقبل أن تمتلئ يده ببعض الدنانير لم يحس على نفسه إلا وهو يُدفع من الخلف، ووابل الشتائم بدأ باختراق طبلتي أذنيه، إنهم المتسولون مالكو هذا المكان، أمروه أن ينصرف قبل أن يخرج الأمر عن نطاق الكلام ويتحول إلى معركة طاحنة الغلبة فيها محسومة لمن، ودون أن يستفسر عرف أن المكان محمي من قبلهم، والذي أمره بالانصراف هو الزعيم، وعلى الرغم من أنه مجرد زعيم متسول فإن دكتاتوريته واضحة جليا...

خبَّأ تلك الدنانير التي جمعها في جيبه وانصرف، ماذا سيشتري بها؟، أكلا لأولاده؟ أغراض ابنته؟ هو يعرف بأن زوجته التي لم تطلب شيئا تحتاج لألف غرض.

أقفل راجعا وفي طريقه اشترى ما هو بحاجة إليه، دفع ثمنه تلك الدنانير القليلة وانطلق جارا رجليه راضيا بعض الشيء ولو كان مكرها عما اشتراه، بدل أن يدخل البيت مباشرة انعطف خلفه أين توجد شبه غرفة بلا سقف وبجدران متآكلة تتوسطها شجرة بلوط يتم فيها ربط حمار جاره وإطعامه، أسند ظهره عليها، تمنى بشدة لو أنه خُلِقَ ذلك الحمار، ثم أسرع وقطع حبل الأماني أخرج من الكيس قارورة فتحها، فحتَّمه عن آخره، تجرّع دون أن يسمح لنفسه بأخذ وقت مستقطع للتنفس وقبل أن يكمل قارورته كان قد سقط مغشيا عليه مُشبعا

معدته التي أنَّت كثيرا من الجوع، انبطح وخرَّ على الأرض، مع سماع حشرجته علا صوت جاره مفزوعا مناديا على زوجته وبقية الجيران، تم طلب النجدة، أسعفوه إلى المستشفى لكن الأوان كان قد فات فقارورة " الأسيد" كانت قد عملت الواجب بإملاء معدته وإخراج روحه، لقد ارتاح لكنه أضاف لألقاب، الفقير، المتسول، اللص، المحتال، المشلول، لقب آخر، لقب المنتحر الكافر...

أعزاءنا المشاهدين، أوفياء قناتنا، ومتتبعي برامجنا اليومية ندعوكم لمرافقتنا مع باقة البرامج المتنوعة التي ستغزو الشاشة تزامنا مع الموسم الجديد، ومع البرنامج الأقوى للدكتور ن ما عليكم سوى مرافقتنا لشراء سعادتكم مقابل الوقت الذي تمنحوه لمشاهدته، تابعونا حسب التوقيت التالي، هنا تغزو صورة الدكتور شاشة التلفزيون بابتسامة مشرقة ووجه بشوش يزاحمها من جهة اليمين وبخط عريض جدا عنوان البرنامج الذي سوف يقدمه ويُدلي فيه بدلوه، وتحته مباشرة بخط أصغر مختلف ولون مغاير، اليوم والتوقيت الذي سيكون فيه المتابعون قابعون أمام شاشاتهم منتظرين طلته البهية مغلفة بإرشاداته الفريدة ونصائحه الشهية، يجيد وضع يده على الجرح إنه لا يخطئه أبدا، هذا ما صار يصل إلى مسمعه فيما بعد...

<u>الحلقة الأولى</u>: رفقا بالقوارير.

بداية الاقتباس:

" إنه ليقشعر جلدي وتكتسحه حبيبات الزغب، تتبدَّل سحنة وجهي، وينفطر فؤادي كلما سمعت أنه لا يزال في زماننا هذا وفي القرن الواحد والعشرين من يعنِّف المرأة، من يضرب زوجته كما تُضرب الدواب أكرمكم الله، يجلدها كما كان يُجلَد العبيد في سالف العصور، لا يفرق بينها وبين غرض مؤقت الاستعمال، يعاملها معاملة البيض للسود في تلك الحقبة المخزية من

تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، شأنها شأن عمّال المناجم الذين حُجِبت عنهم شمس الحياة، إذا أبدى رأيه أو تكلم في أمر ما لا يحق لها أن تعقِّب على ما قال أو تفنِّده، إذا ليس عليها سوى أن تستجيب بالسمع والطاعة، لقد خُلقت لأجل إسعاده وبث طعم النشوة في قلبه، وسماع كلماته وتنفيذها بحذافيرها، أقنعوها بإمكانية ارتكابه للأخطاء واستحالة الأمر بالنسبة لها، أن الكلمة العليا ما هي إلا كلمته، أما كلمتها فهي السفلى دائما أو قد يكون من الأحسن أن لا تخرج من بين شفتيها حتى لا تسبب أية متاعب... لقنوها كل الفنون كي تسعده بينما لازال الطرف يُغض عما يتوجب عليه أن يقدمه لها ولا زالت هي تجهل أن لها حقوقا هُضمت وابتلعت دون أن تستطيع الاعتراض...

إنها ليست ناقصة عقل كما يخطر على بال الكثيرين، فأحدث الإحصائيات تشير إلى أن نسبة تفوق المرأة في مجالات عدة قد فاقت بكثير ما وصل إليه الرجل بذكائه وعقله الكامل..

إنها تتعب وهي تحمل بطفلها وتتعب وهي تلده ثم لا يغمض لها جفن وهي تلقنه فنون التربية، وترهق وهي تغسل وتطبخ وتدرِّس، وهنا اسمحوا لي أن أشاركم مقولة تشرح الموقف وتوضحه أكثر يقول فيها أحد الحكماء: "يرضع الطفل مـن أمـــه حتى يشبع ويقرأ على ضوء عينيها حتى يتعلم القراءة والكتابة ويأخذ من نقودها ليشتري أي شيء يحتاجه ويسبب لها القلق والخوف حتى يتخرج من الجامعة وعندما يصبح رجلاً يضع ساقاً على ساق في أحد مقاهي المثقفين ويعقد مؤتمراً صحفياً يقول فيه:إنّ المرأة بنصف عقل!! فيوافقه ويصفق له ذباب المقاهي."

كل هذه العاهات والمثبطات لصيقة بيومياتها ثم تقولون إنها لا تبدع، بل ولا تحاول الإبداع، اتقوا الله يا إخوتي ورفقا بالقوارير...

إن هذا عزيزي المشاهد كما سبق وأخبرتكم يجري في القرن الواحد والعشرين وعيني هاتين التي لا أملك أغلى منهما سوى زوجتي، قد رأتا الكثير وأذناي قد سمعت ما هو أفظع من أن يروى في حلقة على التلفزيون لا تتجاوز مدتها الساعة الواحدة..

نهاية الاقتباس

امرأة تابعت البرنامج خرجت من بين شفتيها تنهيدة حسرة، قالت: أي حظ تمتلكه زوجة هذا الرائع، وفاضت عن عينيها دمعتي حسد.

الحلقة الثانية: كن إنسانا

بداية الاقتباس:

أيمكن أن تصدق عزيزي المشاهد بأنه رغم التلاعب بالألفاظ ومحاولة تنميق كلمة خادمة واستبدالها بعبارات أخرى تكون أكثر تحضرا ورقيًا، وأنه رغم المحاولات العديدة للمنادين بالمساواة بين الأفراد والنظريات التي أنهكت فكر الأقدمين في تمجيد اليد العاملة، مهما كانت صفة الإنسان العامل، غير أنه ويا للعجب عقل الإنسان المتعصب والمتحجر وكذا الدكتاتور الذي يقبع داخله لا يستطيع مهما حاولت إقناعه، أن يرضى بأن يتساوى بينه وبين خادمه أو خادمته، إنها قمة العنصرية عزيزي المشاهد، كيف أنه بعدما ظننا أننا تنفسنا الصعداء وقلنا أن العنصرية إلى زوال مع التغيرات التي واكبت التطور في العالم، فإنه وللأسف تعترضنا مواقف تبرهن لنا أننا كنا على خطأ كبير فالقضية لم تتحرك قيد أنملة ولم تُزَحزَح أبدا نحو الاتجاه المرجو.

أتذكر هنا الخطاب الشهير لـ "مارتن لوثر كينج"، وأود أن أذكركم بكلماته الخالدة وهو يردد:

لدي حلم

أبناء العبيد السابقين وأبناء المستعبدين السابقين

سيكونون قادرين على الجلوس معا على مائدة الأخوة

لدي حلم

أطفالي الأربعة

يعيشون في بلاد حيث لا يمكن الحكم عليهم من خلال لون بشرتهم

بل بمضمون شخصيتهم

لدي حلم...

لدي حلم، أن تزول العبودية الحديثة من على وجه الأرض، سنكون حقا بشرا أنانيين، إذا لم نعمل على أن يكتسح حلم "مارتن" الواقع كليا وتمحي كلماته النيِّرة ظلام ما نعيشه...

ومن أجل أن تسود المحبة ويعمّ السلام الروحي فإنه على كل منا أن يعطف على الآخر وأقصد بالآخر هنا تحديدا الخادم الذي يتعب لراحتنا، عليكِ سيدتي أن ترأفي بخادمتكِ... ارثوا لحالهم، فلولا ظروفهم القاهرة ما قطعوا آلاف الأميال مخلِّفين وراءهم عائلاتهم وفلذات أكبادهم، مُكتَفين بدموع حارقة يذرفونها كلما هب الحنين وعصفت بأرواحهم المثقلة أوجاع الفراق، هي أوجاع واحدة لهموم متعددة صدقوني، صدقني أنت عزيزي المشاهد الذي تنهال بالسباب على سائقك إذا تأخر خمس دقائق عن الموعد الذي حددته له، أو نسي أمرا وهو عائد للبيت، أو حتى إذا حدث عطب ما في السيارة دون حول منه ولا قوة، نعم أنت

الذي تكسر مشاعر خادمة بكلامك الجارح إذا كسرت لك عن غير قصد أتفه غرض في البيت...

إن نسبة التعدي على الخادمات وصلت أوجها في بعض الدول العربية، و نسبة احتكار الأشخاص وتشغيلهم دون دفع مستحقاتهم أو تأمينهم من الأخطار التي يتعرضون لها قد فاقت المعقول...

إن التمييز العنصري وغير الإنسانية صفات لصيقة بنا، ويتوجب علينا البدء في تغيير ما بداخلنا حتى يستقيم حالنا، هذه المناظر والشهادة لله تثير حفيظتي وقد حدث أن شاهدت منذ أيام قليلة برنامجا للطبخ كانت الطباخة تعد فيه حلوى بنية اللون وشكلها يشبه شكل الرأس إلى حد ما، هذه الحلوى كانت تطلق عليها اسم "راس العبد"، أيعقل أن نسمي حلوى تستكين في بطون شعوب كاملة باسم العبد فقط لأن شكلها أسود مثل رأس العبد، أو العبد بحد ذاته؟ ألهذه الدرجة نحن عنصريون، وغير إنسانيون؟ نحن مجرد قطيع من البشر يفتقر للإنسانية وهنا أذكر جملة توضح الرؤية وهي عبارة عن مقولة للكاتب اللبناني ميخائيل نُعَيمة:" ما أكثر الناس وما أنذر الإنسان" ...

انتهى الاقتباس

قالت الخادمة التي كانت تقف مشدوهة عند باب المطبخ وتسترق السمع والنظر لشاشة تلفاز سيدتها التي كانت هي الأخرى تحضر محاضرة الدكتور: "يا ليتني كنت خادمة في بيته الكريم، أرتوي من طيبته وإنسانيته العميقة..."

<u>الحلقة الثالثة:</u> الرفق بالحيوان

بداية الاقتباس:

الرفق بالحيوان من صفات الإنسان، وحين أقول الإنسان لا أعني ابن آدم، أنا أقصد ذلك الذي تضخ في عروقه دماء الرحمة والمتجرد كليا من صفات الوحشية، أتدرون أن بغيا دخلت الجنة في كلب سقته؟، بينما دخلت النار امرأة بسبب هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا جعلتها تأكل من خشاش الأرض؟

إن جمعيات الرفق بالحيوان قد غزت أوروبا ودول العالم المتحضر، في حين بقينا نحن كالعادة متخلفين عن الركب الحضاري وعن إرهاصاته، وعلمنا أولادنا ركل وضرب أي حيوان يصادفونه يتحرك في الشارع...

إن الراحمين يرحمهم الله، والحيوان هو من بحاجة ماسة لهذه الرحمة، إن رفقت به وأحسنت إليه فهو نعم الرفيق الذي لن يخونك ولن يغدر بك أبدًا...

انتهى الاقتباس.

قال شاب فعال في الأنشطة المتعلقة بحماية الحيوانات، وهو من مؤسسي إحدى جمعيات الرفق بالحيوان، التي لم يسمع بها سواه وأعضاء جمعيته طبعا: "ليته كان فردا منا وعضوا معنا لأوصلنا صيتنا للعالم وبزغ فجر فكرة الرفق بالحيوان..."

<u>الحلقة الرابعة:</u> بيئتنا في خطر

بداية الاقتباس:

حين تجوب شوارعنا وتتنقل عبر طرقاتنا لا يمكنك إلا أن تقول بينك وبين نفسك متحسرا: "هنا بصق فلان، هنا رمت فلانة محارم أنفها المستعملة، هنا ألقت أم مهملة بحفاظ ابنها المليء بالفضلات، هنا كسرت يد عابثة غصن هذه الشجرة أو تلك، في هذا المكان تنزّهت عائلة من عائلاتنا المتشابهة وتركت الأرض تلعنها بما أثقلتها به من نفايات وبقايا أكل"، هذا وأكثر بكثير من كل ما سلف ذكره ستجده دون عناء منك في شوارعنا وأحيائنا وأزقتنا، في شواطئنا ومنتجعاتنا وحدائقنا، متى نرتقي لتكون نظافة شوارعنا بنظافة بيوتنا أو أحسن؟ متى سنعرف أن البيئة هي جزء لا يتجزأ من صحة الإنسان، من ثقافته، ومن تحضّره؟... أيعقل أن يتصرف ابن آدم صاحب العقل الذي يسكن رأسه بهذه الطريقة المستهترة مع محيطه؟.

نهاية الاقتباس:

عجوز مهووس بنظافة حيه كما يلقبونه، تفرغ بعد تقاعده لتنظيف بوابة البناية وما جاورها وغرس الأشجار أمام محيطها، لكن الدنيا أنهكته وهو يتحسر على الشجيرات التي يغرسها كل مرة ويقتلعها أبناء حيه، هذا العجوز كان يحضر حلقة الدكتور وبكلمات حنونة صاغتها روحه قال: "كان من المفترض أن يكون هذا الدكتور من أبناء حيينا..."

قبل تسجيل حلقة من حلقات البرنامج:

كان عائدا كالعادة عند العصر إلى بيته ليستريح مدة ساعة على الأقل قبل أن يذهب لتصوير حلقة هذا اليوم من برنامجه، كان مستعجلا كي يصل بسرعة علّه ينال قسطا إضافيا من الوقت يستطيع أن يستريح فيه، ثم بدا وكأن السيارة لا تتحرك من مكانها

بسبب الازدحام، صبره بدأ ينفذ وصدره ينقبض وصوته يعلو لينفجر بعدها غاضبا موبخا سائقه بحنق شديد طالبا منه أن يجد حلا سريعا يجعله يستعجل، فور وصوله ونزوله من السيارة رمى بسيجارته التي كانت تشغل فمه على الأرض قبل أن يضغط على مقبض باب بيته لتتقاطع بعد ولوجه البيت مباشرة نظراته بنظرات زوجته التي كانت تلهو وتمرح رفقة طفليهما، زمجر فيها بنظرة حادة عاقدا حاجبيه وخاطبها بنبرة حاسمة: "أخرسيهما الآن يا عديمة الفائدة أريد أن أرتاح قليلا"، والتفت إلى الخادمة بعد أن أنهى ما قاله للتو لزوجته خاطبها آمرًا، "أريد أكلا يكون محضرا بعناية أجده فور استيقاظي من النوم..." انصرفت موافقة تجر رجليها، زادت حدة صوته وزاد علوه مخاطبا إياها، "وانقصي من كثرة تحركاتك فالصوت الذي تحدثه مشيتك يصيبني بالنرفزة ويوتر أعصابي، الأفضل أن تكسر رجلاكِ... أضاف وهو يصفق باب غرفة نومه..."

القصة مستوحاة من قصيدة لأحمد مطر

الزائرة الأولى: زوجي يضربني، يهينني، ولا يراني سوى مسخا أمام عينيه، إنهما عيناه اللتان تلمعان لكل امرأة يصادفها باستثنائي أنا، وطيبة قلبه تظهر لكل المخلوقات في حين لا أرى منه أنا سوى الشراسة في مخاطبتي والسوء في معاملته لي، خذي كل أساوري وما ادخرته من نقود لأيام سوداء لأني اقتنعت الآن أني لن أرى أشد سوادا من التي أعيشها، فقط أريد أن أصبح ملاكا وديعا في عينيه، ولا ضير في أن تجعليني أتحكم فيه بعض الشيء، ربما أرجع ثأر سنوات مضت كنت فيها ممسحة بيته وجاريته، أريد أن أرجع بعضا من كبريائي المهدورة، واستنشق ريح أنوثتي المفقودة بعودة اهتمامه بي كامرأة...

الزائرة الثانية: تجاوزت الخامسة والثلاثين، وكلما طرق طارق باب بيتنا المتهرئ ذهب من غير عودة وكأن الأرض انشقت لأجل أن تبتلعه فقط، انتظره يوما، أسبوعا، شهرا، وقد يصل الأمر إلى انتظارٍ تفوق مدته السنة ثم أستسلم لسوء حظي وقلة حيلتي، حتى أخبرني العارفون بمثل هذه الشؤون ذات يوم أن لدي سحر التعطيل، أقصد تعطيل الزواج، وأن اختفاء العريس بهذه الطريقة إنما هو بفعل فاعل لم يرض لي الخير أو أراد أن ينتقم مني لسبب لا أعرفه حتى، أريد أن أزيح هذا العطل الذي حرمني متعتي في الحياة كأية فتاة عادية، أريد أن أحظى بزوج كريم ينتشلني من مرارة الوحدة، فأكون له بئرا ويكون لي سندا، أريد أن أنجب طفلين أو ثلاث، أما إذا كان ذلك صعبا أو متعذرا فأنا جد قنوعة، صدقيني طفل

واحد يكفي ليشعل في قلبي روح الأمومة، ويجعل الحنان والعطاء يربو داخلي أكثر فأكثر، ساعديني وخذي ما شئتِ، فقد مللت وضعي هذا وقد ملَّ مني هو الآخر...

الزائر الثالث: ابني المسكين نال منه الصرع اللعين، في اليوم يغمى عليه ما يربو عن ثلاث مرات، الحركات التي يقوم بها فور سقوطه، ارتعاش جسمه، اللعاب الأبيض الذي يخرج من فمه، الصوت الذي يصدره يجعل قلبي ينفطر وروحي تتعذب لأجله، حين أرى أحد أقرانه أتحسر وبشدة على حال هذا الولد الذي ابتلي من غير حول منه ولا قوة بمثل هذا المرض، لقد عرضته على العديد من الأطباء الذين ذاع صيت قدرتهم على شفاء مثل هذا المرض لكن دون جدوى كل الذي كانوا يقومون به بإتقان هو إفراغ جيوبي، أنا أب ولم أعد أحتمل التفرج على مأساة وعذاب فلذة كبدي، كل ما أريده منك هو إزاحة هذا المرض المضني الذي أنهك كاهله وكاهلي، لقد امتدحكِ الكثير، وقيل إن لديكِ علاجا شافيا لكل الأسقام، وسقم ابني لن يصعب عليك بكل تأكيد، ولن يكون أقوى من قوتك وخبرتك في علاج حالات مثل حالاته.

الزائرة الرابعة: ابني لم أعد أره منذ زواجه، كأنه فص ملح وذاب كما يقولون، لم أتخيل يوما أن الذي أرضعته حبي وأطعمته حناني وسقيته كامل اهتمامي سيستبدلني في لمح البصر بزوجة تنسيه في كل ما يتعلق بي، أنا لا أقول أن يرمي زوجته لكن ليس من حقه أيضا أن يرمي أمه على هامش حياته، أريد ابني أن يعود بين يديَّ ويسكن حضني كما كان دائما، أن يكون طوع أمري، فمن غير اللائق أن أكون علكة في أفواه جاراتي، وأضحوكة أقاربي، أطلبي ما شئتِ مقابل أن يعود ابني ذلك الحمل الوديع...

الزائرة الخامسة وزوجها: لا نريد سوى طفلا نناغيه، يقول ماما أو بابا فتنفتح لكلماته أسارير روحينا، طفل نغدق عليه حبنا المخبأ في قلبينا لأجله منذ سنوات، طفل يشبُّ تحت أنظارنا ليحملنا عند الكبر ويدعو لنا عند الممات، أيعقل أن نرى كل هذا الكم الهائل من الأطفال منتشرين، في الشوارع والمدارس والروضات والحدائق العامة ولا يكون لنا نصيب في طفل واحد فقط على الأقل؟! نحن لا نريد أكثر من طفل، فأمرينا بما شئت وصفي لنا ما يجب إتباعه كي نحظى بهذه النعمة التي نفتقدها منذ عقد من الزمن وخدي ما ترينه يرضيك ويكون أجرا مقنعا لأتعابكِ...

الزائر السادس: أنا مجرد نكرة في هذه الحياة، إنسان بلا أدنى فائدة، الفشل يلبسني من أخمص قدمي إلى أعلى نقطة في رأسي، منذ دخولي المدرسة لا بل قبلها، لم أكن أسمع سوى كلمة غبي، حمار، لتتطور مع الزمن فأصبح غيري يسمعني عبارات أكثر إيلاما مثل أنت لا تصلح لشيء، وجودك وعدمه سواء، ويصل بهم الأمر إلى أن يقولون لي أحيانا أن عدم وجودي كان سيكون أحسن كي نرتاح من المصائب التي يجلبها غباؤك دائم النمو والتطور، كل ما أريده أن أنجح في صفقة عملي المقبلة، هذه الصفقة التي سهرت كثيرا على رسم مخططها، أريد أن يسير المخطط على طريقه الإيجابي كي تنجح صفقتي أريد أن يشار لي بالبنان بعد إماطة حجر الفشل عن طريقي والظفر بالنجاح الذي سيزيل معاناتي الدائمة مع سوء حظي...

تعمل ما في وسعها لتبدو جادة في عملها، تصف العقار النادر لفلان والمتوفر لفلانة، تبحث في كتب الفلك وتخاطب تلك الأرواح غير الموجودة أصلا، تفرق بين فلان وفلانة، وتجمع شمل غيرهم، تسعد الكثيرين وتجعل البعض ينقم عليها لكن بصمت، فلا أحد يستطيع إخراج

غضبه مهما كان جمًّا ولا نقمته مهما كانت كبيرة خارج أسوار قلبه خوفا من اللعنة التي قد تلحقه...

لكنها تقف كل مساءٍ بقلب كسير وروح مهزومة في منزلها القذر الذي تعاف الحيوانات اتخاذه مسكنا لها، ابنتها التي تعدت الأربعين وتعاني من بعض الاضطرابات العصبية تجلس في إحدى زوايا الغرفة منغلقة على نفسها مع ألعابها تكلم بعض الدمى، تقيم لها حفلات أعراس هذا ما تفعله دائما، قبل ساعات كانت بيدها مفاتيح سعادة غيرها، الكل يرى أن بيدها أرزاق الناس وبإشارة منها تسكب الخيرات الوفيرة على من رضت عنه، وبالمقابل أيضا تصب لعناتها على من نقمت عليه، تتحجر دموعها في عينيها الكبيرتين اللتان لم تخلقا بهذا الحجم سوى لتتمكنا من حمل الكثير من الأحزان داخلهما، تتراكم الدموع أكثر ولن تكشفا لها بعد ذلك سوى عن صورة ضبابية، تلك الدموع التي ستذرفها تكتسح وجهها بطريقة عشوائية تجعل ألوان الصورة متداخلة وهي تحملها بين يديها، كانت هذه صورة ابنها الوحيد الذي ورغم حرصها الشديد فقد استطاع الموت التسلل إليه ليتخطفه منها في حادث سيارة مروع، ذلك الموت لم يخطف الابن فحسب وينصرف بل ترك روحها معطوبة، وأصبحت منذ ذلك الفقد تعيش بقلب مشلول، وضمير منكسر، تبيع الأوهام وتقتات على سعادة الآخرين..

الشرف - يا ولدي - ليس في الجسد فقط، كما يظن بعض أهل الشرق!

الشرف في الكلمات، والوعد، والعمل، والحب.

لا تكن شريفاً في أمر ما، وأقل شرفاً في أمر آخر!

*كن شريفاً في كل أمور حياتك**

محمد الرطيان من كتاب وصايا.

الزواج سترة يا بنتي، ولا مفر لكِ منه... هذا ما قالته لي أمي بصوتها المبحوح الذي يزيدها طيبة فوق طيبة قلبها.

وحين تلمَّست الحيرة على محياي، وعدم الرضا والرفض قد اكتسح عيناي أكملت كلامها:

ـ أعرف ما تفكرين فيه، لكن لا يهم أن تحبيه الآن، ولا أن يرتاح قلبك له، يكفي أنك وجدتِ رجلاً لتكوني ممتنة شاكرة للظروف التي جعلته يتقدم لك، وأن تكوني راضية به كونه الهدية التي أرسلها الله خصيصا لكِ، يا ابنتي أنا لن أخلد في هذه الحياة لأبقى إلى جانبك، ولا بيت والدك سيبقى مشرعا على مصراعيه، لكِ أو لإحدى أخواتك، لن يدوم للمرأة سوى بيتها، حيث يكون زوجها وأطفالها...

كان هذا هو الحوار الذي أجرته معي أمي يومها إن صحت تسميته حوارا، فهو أشبه بخطاب أو محاضرة يستعمل فيها الخطيب ما أوتي من فنون الخطابة وأساليب الإقناع للتأثير في

مستمعه المجبر على الاستماع فحسب لا على الكلام، بعد انصراف أبي وجهت لي كلماتها هذه التي كنت أعرف خلفيتها، إذ أن الحديث الذي دار للتو بينها وبينه قد سُجِّل جيدا في رأسي من خلال تنصتي على حديثهما ـ الذي لم يكن سريا ـ سمعته يقول لها بصوت حازم: ـ جاء نصيبها فلنزوجها، ماذا ننتظر بعد؟ ردت عليه هي بذلك الصوت الطيب المبحوح وأضافت إليه بحة دموعٍ غلبتها: ـ لكنها حتما لا تريد الزواج، الآن على الأقل، أنت تعرف أنها فتاة ذكية وتطمح إلى إكمال دراستها بدون أدنى شك، ماذا سيضيرنا لو صبرنا عليها بضع سنوات أخرى تكون قد تخرجت لتساعدنا وتساعد نفسها بالذات؟ ألم تر ابنة جارنا تلك التي... وقبل أن تكمل أمي حجّتها قاطعها بحدة: قلت ما لدي ولا أريد سماع نصف كلمة بعدها ثم أضاف حانقا: أتنتظرين منها أن تخترع للبشرية ما عجز عنه العلماء مثلا؟؟

تجرأت أمي على إخراج لسانها رغم أن أبي طلب منها أن تبتلعه وأن لا تفتح فمها أبدا: ولكن الرجل كبير جدا بالنسبة لبنت في مثل عمر ابنتنا، ماذا يضيرنا لو... وهنا علا صوته، احمرت عيناه الجاحظتان واشتد غضبه: وأين المشكلة في هذا أيضا؟ أم أنكِ تنتظرين أن يطلب يدها الوزير أو يتزوجها ابن الرئيس؟ أضاف آخر جملة مستهزئا وانصرف...

أنا من جهتي أدركت على الفور المصير الذي ينتظرني فلست الأولى في البيت التي طبّق عليها قانون والدي الصارم، الزوج قبل كل شيء، قبل الدراسة وقبل حتى أن تدغدغ رغبة الزواج قلب أية واحدة منا...

التفت أمي بعد لحظات من الشرود لتجدني واقفة أمامها مكان أبي الذي كان هنا قبل لحظات لقد احتللت مكانه فور انصرافه، رمقتني بنظرة فيها بعض من التوسل لتجبرني على

القبول دون إثارة أدنى مشاكل بمحاولتي الرفض فقد تثور ثائرة والدي جراء تعنتي تجعله يطفئ هذه الثورة على جسدها أو جسدي أو على كلا الجسدين النحيفين والمنهكين...

كان ذلك الرجاء في عينيها المنكسرتين هو ما جعلني استسلم دون أدنى مقاومة وأذعن للمصير الذي تم رسمه لي بطريقة لا تختلف كثيرا عن طريقة أخواتي اللواتي سبقنني للسترة...

خاطبت نفسي علها تدرك وضعي الحرج من جهة ولأنه ليس لي من أبث إليه شجوني سواها من جهة أخرى، أخبرتها أنهم سيرتاحون من فم جائع، فجلّ همهم ينحصر في طريقة إطعامه، وسيزيلون عن أكتافهم عبء جسد لم يعرف يوما ما يستره سوى انتظار هذا الرجل ليلبسه كيفما يشاء.

كان عليَّ أن أهيئ نفسي لهذه النهاية منذ زمن، فأنا أو غيري خلقنا لنكون لغيرنا، أحلامنا، أيامنا، ضحكاتنا، أجسادنا كلها نخبئها لغيرنا، أبي كان كلما ضاق به الحال قال متهكما: متى يأتي نصيبهن لأرتاح منهن ومن همهن؟ أمي التي كانت تشعر بالذنب لجرم لم تقترفه يداها كانت تواسيه بطريقتها الخاصة فتعقب على كلامه: أنت تعرف أن البنات ملك الناس يا رجل، وسيأتي اليوم الذي يحضر فيه المالك لأخذ أمانته، وإلى ذلك الحين ما علينا سوى التحلي بالصبر والدعاء بتيسير أمورهن وكانت تقصد بتيسير أمورهن تيسير مجيء فارس الأحلام الذي لم يكن يشبه الفرسان في شيء أبدا.

انصرفتُ صامتة مذعنة، في داخلي ثورة من الرفض، فسرت أمي حينها ذلك الصمت على أنه القبول، وأخبَرت أبي أنني أعطيتها إشارة الرضا والمتمثلة في الصمت والتي لم يكن في الحقيقة بحاجة إليها...

في غرفتي التي لم تكن غرفتي الفردية ـ كما حلمت دوما ـ بل كنت أتقاسمها مع ثلاث أخوات أصغر مني وأخ يصغرنا جميعا يعتبر آخر العنقود ويحظى بمباركة وحب لا نحظى به نحن السبعة مجتمعات، كيف لا وهو من استنزف طاقة أمي وأبي وجعلهما لا يستسلمان أبدا فثابرا حتى أنجباه ثم أغلقا بعده بوابة الإنجاب جيدا خوفا من أن تطل للحياة بنت ثامنة هما في غنى عن حمل همها.

هذه الغرفة كانت قد أصبحت أوسع نوعا ما منذ زواج الأخوات الثلاث الأكبر مني، وستصبح أوسع بالتأكيد بعد زواجي، أخرجت كتبي ودفاتري التي علقت عليها آمالي وأثقلتها بأحلامي، أغرقتها بدموع الوداع قبل أن أحرقها لأتخلص إلى الأبد من ذكرياتي الجميلة، دائما أنا عكس التيار، غيري يحرق الذكريات السيئة التي تضل تعذبهم، في حين أُحرِقُ أنا ذكرياتي الجميلة حتى لا تتحرش بي فيما سيأتي من الأيام، أخرست الطفل البريء الذي كان يلهو ويمرح داخل روحي والتحفت بثوب المرأة الراشدة التي تنتظرها مسؤوليات رغم أنها لا تريدها ولم ترنُ إليها أبدا.

قبلت إذن هذا الزواج لكن على مضض فلم يكن لي أدنى خيار آخر يمكنني اختياره، ولم تكن متاحة أمامي أي دروب أسلكها سوى هذا الدرب الحتمي، عليَّ أن لا أكون أنانية وأفسح المجال لأخواتي اللواتي ينتظرن بعدي، ستنعمن ببطانية إضافية، وبحصتي اليومية من الطعام فور استلامي من طرف زوجي الذي سيتولى إطعامي، هذه هي القاعدة، حتى موضوع إتمام الدراسة لم أناقشه، فأبي حسم الأمر وأمي أضافت مؤيدة الرجل لا يعيبه شيء أبدا وزوجك الحمد لله رجل جيبه مملوءة، فما كان مني سوى الرضوخ مكرهة لصفقة البيع...

لم أحسَّ بنفسي ولم أعِ لما يدور حولي إلا وأنا زوجة رجل يكبرني بعشرين سنة، كان أول من ولج صفوَ روحي وكنت ثالث زوجة يتخذها له أو يشتريها بنقوده، ليس مهم رأيي فيه مادامت عيون الناس تحسدني عليه وعيون أهلي ترمقه بالكثير من الاحترام والمودة، كيف لا وهو من استلم شرفهم، وانتشلني من الجوع والعري، وخلصهم من همي الذي أنهك تفكيرهم، وتولى ستري...

كنت في بيته مجرد خادمة أحضر الأكل وأنظف البيت وكم تمنيت لو أن الأمر تعدى ذلك لأكون وعاءً لإنجاب أطفال يكونون سندا لي فيما يأتي من الأيام، فهذا الأمر رفضه رفضا قاطعا وحذرني بالوعيد والتهديد عما ينتظرني إن لم آخذ احتياطاتي، هو لن يخسر شيئا كونه شبع من عدِّ الأولاد التي أنجبها في الزيجات السابقة، ولم يعد يرغب في إضافة رقم جديد لدفتر عائلته، أما أنا فبقي قلبي يتحسر على ولد لم أحمله بين ذراعي، ولم أرضعه أحلامي التي بقيت معلقة علّه يمسح بوجوده مأساة أيامي الروتينية.

كان ينظر إلي أغلب الوقت باستعلاء وكأنه يطعم متسولا أو يأوي في بيته متشردا غريبا، أحيانا أقول أن الحق معه فهو يحس في قرارة نفسه أن الفضل يعود إليه في انتشالي من غياهب الفقر وهو على ثقة تامة أن بطني لم يشبع سوى بفضله، صبرت على إهاناته غير المنتهية ـ اللفظية والجسدية ـ وعلى تقلبات مزاجه الدائمة وحين ملَّ من صبري، هجرني بغير عودة، مخلفا وراءه قلبا مغتصبا وروحا قاحلة وإنسانة زوَّجوها لتُستَر فتعرت أكثر..

مرآتي يا مرآتي

- مرآتي يا مرآتي من أبشع الفتيات؟

- ...؟!!

تصمت المرآة في حين تسمع هي صدى ما بداخلها يتردد في أدنيها: أنتِ يا أبشع البشعات، أنتِ يا أبشع ما خلق الله، أنتِ أبشع الفتيات!

هذا السؤال أصبح من المسلَّمات، عادة لا يمكن التنازل عنها، تشبه في متانتها وصلابتها عادات العرب وتقاليدهم الضاربة جذورها في أعماق الدهاليز، تستفتح به يومها قبل أن تخطو خطوة واحدة بعيدا عن سريرها الحديدي المتموج المفروش ببعض الخرق البالية التي تسهل عملية وخزها من طرف بعض الأسلاك البارزة، هذا السرير يتعبها حين تنام عليه أكثر مما يريحها، أما البطانية التي تلتحفها يكاد يكون وجودها وعدمه فوق جسدها سواء بسبب قِدمها ومشارفتها على الزوال.

أعادت التمعن في مرآتها وقالت ضاغطة على شفتيها وأسنانها مؤكدة: طبعا أنا أبشع الفتيات، عيناي غائرتان تسجنهما هالات سوداء، بشرتي تملؤها البثور الضخمة، أنفي يشبه حبة بطاطا مهترئة، شفتاي معوجتان اعوجاج حظي وبهذا فإن وجهي لا يصلح سوى للتقزز... مقزز قالت هذا وهي ترمقه بنظرة استعلاء وكره...

نظرت إلى الساعة الحائطية القابعة في ذلك الجدار المتهرئ جبسه والمختفي طلاؤه والذي لا تتوسطه غيرها، هذه الساعة التي هي إرث عائلتها لا تعلم منذ متى وهي معلقة هنا بل حتى أمها لا تدري ذلك، وربما لم تحاول أن تسأل كما لم تحاول هي طرح هذا السؤال أبدا، كل ما يهمها هو أن هذه الساعة تذكِّرها بموعد عملها المشئوم، رمقتها بنظرة فزعة وصرخت بلهجة مرعبة وساخرة في نفس الوقت محاولة تقليد السيدة التي تعمل لديها، **Oh, merde**

ثم أعادت تكرار العبارة محاولة نطق مخارج الحروف بالطريقة المتعجرفة نفسها التي تُخرِجها بها سيدتها، لكنها لم تفلح في الوصول إلى ذلك التطابق الذي طمحت إليه، أسرعت الخطى إلى الحمام ثم انتقلت للمطبخ كي تحضر ما تأكله أمها المقعدة، وقبل انصرافها، غيرت لها حفاظها، أشعلت لها الراديو، ضبطته على الموجة التي حفظت برنامجها اليومي والتي تستطيع من خلالها سماع الأخبار، فهموم الناس، فأغاني شعبية ريثما ينقضي النهار أو بعضه تكون هي قد عادت في المساء محمّلة بأكل متنوع فاض عن حاجة العائلة التي تعمل لديها، هذا الأكل الذي بدل أن ترميه تجلبه معها خصوصا أنها هي من تطهوه وتعلم أن ليس به أية علة، تجلس عند قدميها وتبدأ في سرد مجريات يومها وأحداثه والتي تكون بطلتها دائما سيدة البيت... لو تعلمين كم هي متعجرفة يا أمي؟ تسحب تنهيدة من عمق صدرها المثقل وتكمل، ومع هذا لا ينقصها شيء من الجمال والذوق، صحيح أنها تبدو مريضة بعض الشيء غير أن هذا لا يضيرها فهي تمتلك خادمة مثلي تعمل كآلة عتيقة دون تعب أو كلل، أوفّر لها كل ما تحتاج إليه دون أدنى تعب منها أو أي جهد مبذول، أتعلمين يا أمي؟ تضيف كمن قطع رجاءه من هذه الدنيا: لقد خُلق أمثالها ليعذب أمثالي!

تصمت الأم لا تستطيع إحصاء عدد المرات التي أعادت فيها ابنتها سرد مثل هذه العبارات، غير أن هذه البنت حين تحس بانزعاج أمها الذي بدأ ينعكس في انكسار عينيها تغير مجرى الحديث نهائيا كمسرحي ماهر ينتقل بين مشهد درامي مؤثر ومشهد هزلي مضحك بكل احترافية، يدهش جمهوره كما تدهش هي أمها الآن حين تنطلق في إعادة صياغة عبارات التملق التي اشتهرت بها سيدتها، **oh merde**

تحوّل الأم نظرها إليها بعدما كان سارحا في الأسى

Oh , mon Dieu c’est quoi ça ? !

تدغدغ هذه العبارة شفتيها فتبتسم:

Je n’aime pas ces gestes s’il vous plaît arrêtez de les faire

تضحك في النهاية بملء فمها لتكشف عن كهف مهجور لا يوجد أي سن أو ضرس يبعث على النور... وتتحول دموعها التي كانت ستنزل من الأسى إلى دموع ضحك وتسلية تغسل بها قلبها بعد يوم مضنٍ قضته طريحة الفراش رفيقة الوحدة...

بهذه الطريقة تحاول إدخال بعض الغبطة على قلب والدتها المثقل وخاطرها الذي يضيق يوما بعد يوم بضيق عيشهما.

حملت شجونها وانصرفت إلى عملها بعد أن اطمأنت إلى أنها حضَّرت كل ما تحتاج إليه والدتها، عليها المغادرة باكرا تعتمد دائما على قدميها الكبيرتين.

ـ كم تتمنى لو كانتا صغيرتين مثل قدمي سيدتها اللتان تزيدان الحذاء رونقا وجمالا فوق جماله.

أجرة المواصلات كانت توفرها لشراء ما يُعتبر أهم بالنسبة لها ولوالدتها، الطريق الطويل لم يعد يزعجها، إذ أنه أصبح متنفسا جيدا لأفكارها التي تستحضرها قبل أن تصل إلى المنزل الذي تعمل فيه، في هذه الطريق تستحضر مقدار النبذ الذي تكنه لها تلك العائلة، رغم خدماتها المتفانية التي تقدمها لها غير أنها تبقى في نظرهم مجرد أداة لا تصلح سوى للكنس والطبخ، ولولا طيبة قلبها وروحها المرحة لما استطاعت الاستحواذ على قلبي الطفلين الصغيرين، يا لطيبتهما! قالت وهي تبتسم ببراءة، إنهما يظنان أنني أمهما، ثم ضحكت بمكر يتسللون إلى المطبخ كلما غفلت والدتهما عنهما فقط ليأكلا معي أو ليستمعا لقصصي الخيالية التي انسجها لهما والتي لا تنتهي أبدًا، زمت شفتيها بعدما وخزتها حقيقة أنهما سيكبران عاجلا أم آجلا وستزول البراءة من قلبيهما.

لقد اشتاقت إليهما كثيرا هذه المرة بعد عطلة الثلاثة أيام التي منحتها إياها العائلة بسبب تأزم حالة والدتها الصحية! السيد لا يطيق رؤيتي، أيعقل أن يطاوعه قلبه ليراني أنا المسخ وبين يديه زوجته الملاك ذات البشرة الحليبية، الشعر الحريري، والعيون الكستنائية التي تعكس له صورته الجميلة بكل شفافية ووضوح، قدها الممشوق تزينه ملابسها الغالية، تلك التي تشتريها من أرقى المحلات لا تزيدها سوى جمالا على جمال... توقفت عن مخاطبة نفسها بمجرد أن لاح لها هيكل المنزل من على بعد بضعة أمتار.

وصلت المنزل كالعادة وجدت البواب الذي غزى الشيب رأسه واكتسح الوهن جسده، غير أنه لم يبخل عليها بابتسامته المشرقة والمنشرحة، هذه الابتسامة التي حياها ردت عليها هي بأخرى مماثلة، لم تنسَ أن تذكّر نفسها بأنه لو كان شابا لما كلف نفسه حتى عناء النظر إليها.

دخلت البيت ارتدت ملابس العمل، وقبل الشروع في تأدية واجباتها حسب البرنامج المسطر لها انتبهت إلى غياب السيدة المشرفة على إعطاء أوامر إعداد قهوة الصباح على غير عادتها. اكتشفت بعد وقت قصير أن المنزل خال أيضا من رائحة الطفلين المحببة إليها، فقط كان السيد هناك رمقها بابتسامة مصطنعة: صباح الخير، تلعثمت أرادت أن تسأله إن كان يعنيها بعبارة صباح الخير وهل شبه الابتسامة المرسومة على شفتيه كانت لأجلها؟ لكنها بدل ذلك قطعت ذهولها وردت بارتباك: صباح النور سيدي... لم يسبق له أن بادرها بابتسامة تليها عبارة صباح الخير، وحدها كانت تلقي التحية وهو يقرر إن كان سيرد أو لا، وفي أغلب الأحيان كان لا يرد...

السيدة غير موجودة، وكذلك الأطفال أضاف ليزيد من دهشتها، بدرت إلى ذهنها فكرة مبتذلة الآن، أيعقل أن يكون السيد قد رتب موعدا غراميا معها لذلك صرف زوجته وطفليه؟

وكأنه أراد أن يتلاعب بفضولها قبل أن يجيبها عما كان يدور في داخلها أضاف: أريد أن أتحدث إليك، ردّت ببراءة مصطنعة: حاضر سيدي لكن بعد التنظيف أو قبله؟

أجابها بنفاذ صبر، ليس عليك القيام بأية أعمال اليوم، لا تقلقي أنتِ معفاة من جميع الأشغال المترتبة عليكِ.. "أظن أنه سيغمى عليَّ عما قريب" همست لنفسها..

أخرج من جيب معطفه ظرفا ناصع البياض وقدمه لها بابتسامة مصفرة: تفضلي هذا لكِ...

ـ ما هذا؟ سألت

ـ مبلغ بسيط من المال، احتفظي به، قد ينفعك وينفع أمك المريضة " لقد بدأ بإغوائي" قالت في داخلها في حين أكمل هو:

ـ أريد منكِ شيئا واحدا فقط، ولك ضعف هذا المبلغ إذا قبلت بما سأعرضه عليكِ.

سكتت لحظة ولم تتجرأ على سؤاله عما يريده منها بالضبط رغم أن الفضول والرغبة في كشف المستور بدآ بأكل قلبها ونهش روحها، وكأنه أحس بما في داخلها أضاف قائلا:

ـ كل ما ينقصك هو بعض المال أليس كذلك؟ ثم أكمل كلامه دون أن ينتظر إجابة منها أو يعطيها وقتا للإدلاء بما لديها: أنا سأهب لك الكثير منه وليس بعضه فقط... تستطيعين أن تشتري ما اشتهته نفسك دائما.

قالت وقد أحرقها الفضول: لكن مقابل ماذا؟

ـ مقابل التبرع بكليتك لزوجتي التي ترقد في المستشفى الآن، ولما لاحظ ذهولها وكأنها تفهم في موضوع تطابق الأنسجة، أكمل حديثه موضحا، حتى لو لم يكن هناك تطابق بينكما الطبيب سيتكفل بإجراءات تبادل كليتك مع كلية شخص آخر...

ـ اغتبطت، وهزت جسدها نشوة كانت مدفونة، وأول ما بدر إلى ذهنها هو إمكانية تحسين صورتها وتهذيب مظهرها، أستطيع أن أجري عملية تجميل ولن تسخر مني مرآتي بعد اليوم... قالت بغبطة بريئة. ماذا سأفعل بكليتين؟

جلست على سريرها المريح، ذو الفراش الناعم، أسندت ظهرها إلى الوسادة الملساء الحنونة التي حضنت خدها طوال الليل، حملت مرآتها المزينة بأحجار ذات ألوان جذابة ومتلألئة، قرَّبتها من وجهها وقالت بفخر: مرآتي يا مرآتي، أخبريني الآن من هي أجمل الفتيات؟

- ...؟!!

تصمت المرآة في حين تسمع هي صدى ما بداخلها يتردد في أذنيها: أنتِ، أنتِ الآن أجمل الفتيات رغم أن هذا الجمال ثمنه كلية منقوصة...!

خلل نفسي

بعد لقاءين أو ثلاثة من تعارفهما كانت صراحته هي مفتاح اعترافه بحبه لها دون مماطلة، وقد تحفزت هذه الصراحة أكثر بفضل روحها الشفافة ومعاملتها الرقيقة، كما أن ضحكتها البريئة -التي تختزل بين شفتيها سعادة كونه كانت قد أسرت روحه دون سابق إنذار.

توالت لقاءاتهما وفي كل مرة يثني عليها، على جمال عينيها ولون شعرها الذي جعله سواده يسبح يوميا في ليل العاشقين الذي لا تشرق شمس نهاره أبدا، حتى أسنانها المسطرة كانت تجذبه فتجعله يمازحها كل مرة فيقول مغازلا: كل شيء فيك جميل ومنظم حتى أسنانك المسطرة مثل جنود الجيش الكوري تمدك برونق خاص... أعجب كثيرا بثقافتها وحبها للتعلم ونشاطها غير المحدود في العمل...

بعد قراءة فاتحتهما لمح إلى أن وزن جسمها ليس مثاليا بالقدر الذي يهواه، أما بالنسبة لوزن عقلها فلم يعلق عليه أبدا.

_ حبيبتي كلي جيدا ولا داعي لإرهاق نفسك في السهر ولا حتى في القراءة، أو العمل هذا ما طلبه منها، كما لمح للهالات السوداء التي سجنت عينيها والبشرة الصفراء التي اكتسحت وجهها... أمسك يدها، قبلها ليكمل كلامه مبتسما :

_ وبالنسبة لعمل البيت لا داعي لان تفكري فيه أو تشغلي بالك به فأنا موجود للمساعدة متى شئتِ، حتى لو لم تطلبِي، أنا يا عزيزتي مختلف عن كل الرجال الذين يحيطون بك الذين لا يحاولون تقدير الدور الفعال لزوجاتهم ولا يعرفون مكانتهن، ستتربعين على عرش قلبي ملكة وسيكون اهتمامي بكِ التاج الذي يزين رأسك دائما وأبدا.

بعد أيام من زواجهما اقترح عليها أن تصبغ شعرها باللون الأصفر، فالشقراوات كما هو واضح للجميع يمتلكن جاذبية خاصة ومختلفة جدا، وحتى لا يذهب للبحث عن تلك الجاذبية وعن ذلك الاختلاف خارج أسوار بيته فهو لا يتمنى ولا يطلب سوى أن يرى كل ذلك عليها.

_ إن المرأة يجب أن تكون كل ما يشتهيه زوجها، عليها أن تجعل من نفسها ألبوم صور متجدد كلما يقلب صفحة من صفحاته يجد صورة أجمل من الأخرى... بهذا نصحتها قريباتها وبعض صديقاتها حين بدأت بالتململ والانزعاج..

انتقت رقم اللون الأصفر حسب اللون الذي ظنت أنه يتطابق مع الذي اختاره لها، ليس غامقا فتبدو كمراهقة فقدت السيطرة على لون صبغتها ولا فاتحا جدا فيبدو وكأن الشيب بدأ بغزو شعرها، عملت جهدها لإفهام مصففة الشعر الشكل واللون الذي يريده زوجها، عند عودتها للبيت لم تفكر سوى بردة فعل زوجها حين يراها، أسرعت الخطى لتستعرضه أمامه غير أنه نظر إليها نظرة باهتة وبابتسامة صفراء كاصفرار أسنانه ذات البناء الفوضوي أجابها على السؤال الذي ارتسم في عينيها مفاده كيف أبدو؟: ليس كما تمنيته تماما لكن لا بأس استطيع تقبُّلَه...

حملت بعد سنتين من زواجهما وذلك بعد خوف استكان داخلها من أن تمضي حياتها بدون ولد يزيح بعض حنقها من والده، أنجبت ذلك الولد المرتقب وحملت بأخيه مباشرة بعد ذلك لتضع حملها الثاني دون أن تعطي فرصة الاستراحة لجسدها فأخذ بعد ذلك شكل جسمها يتغير إذ بدأت الترهلات تقتنص بعض الأماكن وبدأت تكتنز شيئا فشيئا مناطق على حساب أخرى حتى لم يعد جسمها هو جسمها الذي كان عليه سابقا فكان يتقصد أن يغيض شعورها بين الحين والآخر قائلا:

عجيب كيف تتطور المرأة من فصيلة القردة إلى فصيلة الأبقار!... فإذا ما أخذت على خاطرها فتمنعت عنه مازحها بما هو أغلظ: لا داعي للنأي بنفسك عني لأنك أنتِ الخاسر الوحيد أما أنا فإشارة بسيطة من إصبعي تركض نحوي سيدة النساء، الأصغر، والأبهى، والأرق...

مطالبه لا تنتهي وتغيرات مزاجه لا تستكين إذ عاد ليحثها على ضرورة إنقاص وجبات الأكل التي أوصاها بزيادتها في السابق، كما عاد يطالبها بجسمها قبل الزواج وأن عليها بذل قصار جهدها من أجل العودة إلى الوزن المثالي الذي وضع رقمه مؤخرا في رأسه كمقياس...

أصبح يتذمر من سطحيتها كلما سنحت له الفرصة يوبخها، يستفزها وهو يُسمعها بأنه اشتهى أن يرى كتابا تحمله بين يديها بدل إزعاجه بسرد مسلسلها اليومي الفارغ أمامه والذي ينحصر أساسا في "أمك أزعجتني بهذا التصرف وجارتنا تقصدتني حين قالت، ابن أخيك تنَمَّر على ابننا..." أو بدَل كل هذا الضجر اقترح أن تحاوره على الأقل في شؤون عمله، أن تبدي اهتماما بوظيفته وتطلعاته رغم أنه كان قد أوصاها في السابق أنه لا يجب أن يتطور حديثها معه للتدخل في شؤون عمله أو تفاصيله.

كلما أحست أنها بدأت تقترب من فهمه عادت إلى نقطة الصفر وتيقنت أنها لن تفهمه أبدا، فكرت بينها وبين نفسها في احتمال أن يكون مريضا نفسيا لكن السنون اثبت لها أن هذا هو معدنه وهذه هي شخصيته وهذا هو وجهه الحقيقي، أما هي فليس عليها إلا أن تقصد طبيبا نفسيا ليس لأجله لكن كي يعلمها كيف تصنع شخصيتها أو ربما تسترجع التي كانت تملك على الأقل وقد تتعلم طريقة مجدية للحفاظ عليها.

نجاح فاشل

كانت ناجحة فيما مضى ـ من أيام طفولتها وشبابها ـ بل ومتفوقة جدا في مسارها الدراسي إلى أن تخرجت، تزوجت مباشرة ثم أنجبت أطفالا حلمت بهم وسهرت كثيرا كأية امرأة على تشكيل حروف أسمائهم رفقة والدهم، غير أنها في قرارة نفسها لم تكن راضية لما آلت إليه حالها وما صار عليه وضعها، فقد أحست بنوع من الضعف والتقهقر الداخلي جراء إحساسها بتقاعدها من حياة العطاء والإنتاج خارج حدود بيتها.

لكن ومن حسن حظها ورأفة الحياة بها فقد كانت تملك زوجا قرأ وجع روحها، فما كان منه إلا أن عمل على سقي جذور الأمل داخلها كي تنمو أحلامها وتُزهر ليفوح عطرها المميز من جديد، ساعدها كي تضع قدميها على أولى درجات ذلك السلم الذي يطلقون عليه اسم سلم النجاح، شحذت الدعم ممن حولها، وشحنت هِمَّتها، فكانت عيون أطفالها التي بدأت تضيء لتفخر بها المنارة التي بدَّدت ظلمة البداية وأزاحت الشوك عن مسلكها الوعر...

ولأن قلبها طيب وروحها مُحِبة للبذل والعطاء فقد قررت بمساعدة زوجها ومباركة أطفالها العمل في المجال الخيري فهناك ستجد ضالتها المنشودة، ستغطي بعطائها عري المحتاجين وتطعم بكرمها بطون الجوعى وتبعث بطيبة كلماتها ورقتها السكينة في قلوب المتشردين المفزوعين واليتامى المنبوذين...

أضحت مع مرور الزمن اِسمًا مضاءً في القلوب بعدما كانت حرفا ساكنا على هامش الحياة، أو كما كانت تظن هي على الأقل، أصبحت امرأة المجتمع الذي بات ينشد رضاها ويكنّ لها كل الاحترام والتقدير.

ومع مضي السنين وتقادمها أصبحت مضيئة جدًّا يشار إليها بالبنان هنا وهناك... وكانت تلك جرعات مضاعفة من الأمل تُحقن في وريد إرادتها لتزيد من همتها ونشاطها وتضاعف بالمقابل في عطائها.

تكاثرت مهامها وامتلأت ساعات يومها عن آخرها، وبدأت تختلف أولوياتها وتتغير متطلباتها فاضطرت إلى أن تنتقص بعضا من الوقت المخصص لزوجها وأطفالها، فهذا لن يضيرها بشيء كما اعتقدت ولن يضيرهم حتما بل على العكس سوف يزيد من عدد الأصابع المشيرة إليها، وكذا من عدد الأفواه التي ستُفتح كلما ذكر اسمها أو مرت صورتها التي أصبحت مرموقة أمام مخيلتهم، سيجعل زوجها يفخر أكثر، وعائلتها تنتشي أكثر، وستضاء عيون أطفالها أكثر، حتى أصدقاؤها سوف يبتسمون لها ولما تقدمه أكثر وأكثر...

نجحت فيما طمحت إليه وبنت عالما خارجيا منقطع النظير وقوي الإبهار ومتناهي الجمال، لكن كان هذا بعدما قلَّصت أكثر في عدد الساعات التي كانت تمنحها لعائلتها...

ظلت على هذه الحال طويلا، وفي كل مرة ترتب الأولويات وتعيد النظر في تقليص عدد الساعات وتضييق وقت اجتماعها بعائلتها التي باتت تفتقد إلى العمود الفقري للبيت...

ولأن الحنين له جذور تضرب في عمق الذات حتى لو جزمنا أو خيِّل إلينا أنه دُفن عميقا في غياهب الروح ودهاليز اللاشعور فإن هناك لحظات ضعف وانكسار تنتشله من العمق

لتقذف به إلى السطح، وبالنسبة لها فإن لحظة تراكم المسؤوليات وتفاقم التعب قذفت بحنينها إلى بقايا ذكريات تلك الأيام التي كانت فيها مسؤوليتها الوحيدة تنحصر في أسرتها أما جلَّ تفكيرها فقد كان منشغلا في كيفية الاهتمام بهم وفي طريقة إسعادهم، وعن سهر تلك الليالي فلم يكن سوى للتفكير في سبُل خلق راحتهم.

وتذكرت أخيرا أن هذه العائلة قد خنقتها شدة تقليص الساعات وأن السويعات التي أصبحت تمنحها إياها وتعيشها معها لم تعد تسدُّ رمق وحدتها، فقررت الالتفات لها قصد إعادة التمديد غير أنها أدركت متأخرة أن قانون التمديد والتقليص لا يسري على قلوب البشر، وأن الذي كان في اليد البارحة جعله الإهمال يحلق اليوم إلى أيادٍ أخرى تعرف كيف ترعاه وتهتم به، فزوجها قد عثَر على حضن يسكنه ويعوضه عن ألم غيابها المستمر، أما أطفالها فقد ساعدهم الشارع -بما يزخر به- على إيجاد صحبة تهبهم بسخاء ساعات النهار وحتى الليل دون أدنى عناء...

عمى

فور وصوله من عمله ليلا استلقى على أريكة صالونه البسيط، التي تعوَّدت أن تحمل عنه أتعاب يومه، هذه الأريكة التي بمجرد ما أن يلقي بجسده عليها تمتص ثقل إنهاكه وتبعث في أطرافه استرخاء يجعله يستسلم للنوم...

وبمجرد أن فتح عينيه منتصف الليل لم يبصر شيئا، فرك عينيه جيدا لم يحصل سوى على الظلام، تساءل بينه وبين نفسه بتوتر شديد عن الضوء الذي كان يملأ عينيه وينير الأشياء حوله قبل أن ينام منذ ساعات أو منذ وقت لا يدري مدته فلم يجبه سوى السواد الذي سكنه، فرك عينيه جيدا مرة أخرى حتى كاد يفقؤهما غير أنه لم يتلقَّ أية إجابة تبدد ظلمته وتهدئ من روعِهِ.

ضاقت به الدنيا واسودت الأحاسيس التي بدأت تتضارب داخله، علَّها تتمكن من طمأنة حاسة البصر بأنه خير لكن دون جدوى، اعتدل في جلسته منهار القوى، تحسس يديه حاول عد أصابعه، جاهد في التماس موقع الإبهام والسبابة لآخر مرة على الأقل لكن دون جدوى أيضا.

حين أنهكت قواه عن آخرها حاول استجماع أقصى ما يستطيع من ذكريات ـ عاشها ـ داخل مخيلته كي يقتات عليها فيما سيأتي من الأيام، أن يختزل في مخيلته اللحظات الجميلة التي عاشها والمناظر التي كانت تبهج روحه وتدخل الغبطة إلى قلبه، لون وبريق عيون أطفاله

ابتسامة زوجته، تقاسيم وجه أمه... أراد أن يقوم بمسح كلي للبيت، لون الأثاث وشكله، البلاط، الأبواب، النوافذ ومواقعها، قبل أن ينتقل إلى فسحة البيت ثم الشارع فمكان عمله كل هذا الشريط اخذ يمرره في رأسه بسرعة تفوق سرعة خطف بصره.

تذكر في ظلامه هذا أولئك الذين فقدوا البصر تساءل بفزع كيف أكملوا حياتهم في ظلام الحياة الدامس؟ كيف استطاعوا العيش بحاسة مبتورة ؟ فكر وأعصابه مشدودة ونبضاته تدفع بقلبه للإفلات من صدره، تساءل إن كان يستطيع الذهاب منذ اليوم فصاعدا إلى العمل وإن حدث وذهب من سيرافقه؟ كيف سيدخل الحمام، وكيف سيتصرف؟ كيف سيأكل ويشرب ويغير ثيابه وينتعل حذاءه؟ كيف وكيف..؟؟ كلما تأمل أكثر وغاص عميقا في شريط حياته الجديدة ازداد انتحابا وتوترا...

فكَّر والدموع تُغرق كامل وجهه في الطريقة التي سيرضي بها ابنه في اختيار ألوان اللوحات الفنية الطفولية التي يساعده في رسمها وتلوينها كل مساء، بماذا سيجيب إن خيره هذا الولد الصغير ـ الموهوب كما كان يثني عليه دائما ـ بين اللونين الأخضر والأزرق؟ وهل سيستطيع أن يشرح له أن اللون الذي قضى على كل ألوان الطيف داخل مقلتيه والذي أضحى لون حياته أيضا رغما عنه هو اللون الأسود؟

ترى ماذا سيفعل حيال ابنته التي تتصل به كل مساء قبل أن يعود إلى البيت، تكلمه بصوتها الملائكي الجذاب، بابا أريد مصاصة لونها أحمر يا بابا، تلح قبل أن تقفل الخط، بابا لا تنس أريدها حمراء...

يعلو صوت أنينه أكثر وهو يتذكر بريق عيني زوجته الذي يشعل خلايا قلبه، كيف تأسره بفساتينها وعلى وجه الخصوص ذلك الفستان الأسود الجذاب الذي يضم خصرها بوردة حمراء جوريّة، ذلك الفستان الذي يختزل في جسدها معجزة الجمال الذي تظل تطلبه عيناه طول الوقت...

خارت قواه عن آخرها، توقف عن التفكير والانتفاض، أغمض عينيه واستسلم لقدره المفروض، فتح عينيه بعزيمة حاول من خلالها التظاهر بقبول الوضع الجديد الذي طرأ عليه والتعايش معه كواقع حتمي... كان المصباح الكهربائي قد عاود الاشتعال مع عودة التيار....

حين عزم على الزواج تضافرت كل الجهود، واستنفرت كل العائلة، أمه، أخته، خالته، عمته، وهو بكل تأكيد...كل الوسائل والحيل تم استحضارها ليجدوا له العروس التي تسر قلبه وخاطره.

بدأن بدق قلوب الفتيات ليدق هو على هاتف كل بنت تقترح عليه دون خجل...

_ ألو

_ ألو أهلا

_ معليهش تسمعيني زوج دقايق ؟

_ ايه اتفضل بصح شكون معايا؟

_ أنا خالتي عطاتني النيميرو نتاعك، قالتلي بلي راكي بنت فاميلية، وانا ناوي الحلال.

_ ....

_ اذا راكي مديرونجية ولا مشغولة نهدر معاك منبعد....

_ لالا ما كان حتى مشكل بصح حبيت نعرف شكون انت برك؟ .

_ ياك قلتلك بلي راني حاب نتعرف عليك بعدما وصفتك خالتي ليا، ونقولك الصح، عجبتيني حتى قبل مانهدر معاك ونتعرف على عقليتك ...

_ à ce point

_ وي واكثر تاني .

يقفل الخط تتراقص فصول الحب في مخيلتها، تلعب البسمة بكامل ثنايا روحها، تغمض عينيها لتبدأ في رسم العش الذي سيجمعهما سويا، تعيد على مسامعها ذبذبات الكلمات التي قالها للتو فارس الأحلام الذي طالما انتظرته، ترسم وتلون صور الحياة معه في عدة لوحات توزعها بانسجام أمام عينيها كفنان ساعدته نرجسيته على الافتتان أكثر بلوحاته.

تعيد ترتيبها بتناغم عدة مرات في ذاكرتها، تغرق في الخيال الذي لم يعد يوقظها منه ويعيدها إليه سوى اتصالاته و كلماته...

حتى هو أُعجب بنبرة صوتها الطُّفولي الخجول، وطلب أن يكلل أخيرا هذا الإعجاب المتبادل بلقاء يضم مشاعرهما، وافقت على الفور، التقيا في مكان حدده هو، واتفقا معا على ألوان الملابس التي سيظهران بها.

وصلت قبله بدقائق، تسارعت نبضات قلبها، مع كل دقة كانت تختزل ذكريات أحلام السنين التي خبأتها لهذا الفارس المجهول ... وصل أخيرا، تفحصها جليا، وبنظرة متعالية نسف حجم كل تلك الدقات دون أن يأبه لما ستخلفه من دمار شامل على قلبها، تمهمه قليلا ثم اعتذر

وهو يطفئ سيجارته التي اختلط دخانها بضباب الدموع التي خنقت مقلتيها، قال بصوت متقهقر محاولا الاعتذار عن ذنب متقصد:

_ كل شي مكاتيب .

_ ايه عندك الحق، كل شي مكتوب، وكل واحد يدي اللي مكتبله ربي...

انصرف هو في حين ابتلعت هي الشهقة التي حبستها منتصف الطريق...

في طريقه ودون أن يفكر فيما خلفه وراءه اتصل بعمته، ليطلب منها رقم الفتاة التي حدثته عنها في آخر مرة التقى بها، ألح عليها بأن تسرع لأن الفتاة التي قابلها اليوم تبدو سطحية المظهر وشكلها لا يناسب تلك التي يحلم بها أبدا...

أغلق الخط، وصلته على الفور رسالة عمته خالية من كل الحروف، الرقم المطلوب فقط كان محتواها...

اتصل بالرقم مباشرة، قام بنفس الخطوات التي يقوم بها منذ أن قرر الزواج، طلب موعدا، رفضت في البداية المبدأ، ألح عليها كثيرا، أقنعها بأنه جدي في طلبه وأن هذه الطريقة في التعارف والزواج لا غبار عليها أبدا، قبلت الدعوة... التقيا في مكان حدداه معا بعد أخد ورد، هي اعتادت المشاركة وهذا ينعكس على أبسط تصرفاتها...

أعجب بها بمجرد رؤيتها، توالت اللقاءات وتوالى الإعجاب، كانت مناسبة مقارنة بتلك التي رسمها في خياله من حيث المظهر، طريقة التصرف، اللباقة في الحديث ... لكن ظل هناك عائق واحد يحز في نفسه، إحساسه ببعض التشتت في حضورها، فهو حسب ما تربى عليه

يجب أن يكون متفوقا عليها لا أن يكملها وتكمله، قرر أن يروض طموحها وأفكارها، فمجتمعه يخول له كبحها، وصفة "رجل" التي يتغنى بها تكفي لتجعل أية أنثى ترضخ له، طلب منها التوقف عن العمل هكذا دون أدنى مبرر، فقط لأنه أراد ذلك، رفضت مستفسرة عن السنوات التي قضتها في كلية الطب ماذا ستفعل بها؟

_ ديجا هاذي مليحة ليك انتيا باش تقدري تفهميني وتعاوني ولادك فالمستقبل.

_ اومالا علاش نويتني وخيرتني انا كي راك تحوس على مرا تبقى غير فالدار؟

_ ....

اعتذرت منه ومن عقده النفسية، خمنت أن تقترح عليه طبيبة نفسية ربما سيكون أنسب له، لكنها اختارت الانصراف... انصرف هو الآخر ورغم إحساسه باهتزاز داخلي هذه المرة لأنه رُفِض وهو الرافض غالبا، غير أنه بعدما هدّأ من روعه وكبح اهتزازه لم يفوّت الفرصة بالاتصال بأخته هذه المرة، فسوق النخاسة حسب اعتقاده مشرّعٌ بابه على مصراعيه إلى أن يجد الفتاة التي ترضي غروره...

حلم الشهرة

كثيرا ما انحنت لجمالها الفاتن بثقة نفس زائدة وغرور لا يتزعزع، وبالنسبة لهذه الثقة فإنها لم تكن وليدة الحاضر بل هي سليلة نعومة الأظافر، إذ فتحت عينيها على الدنيا لتثني على نفسها بنفسها فلا تنتظر أو تترقب أن يثني عليها من حولَها وتهيم بجمالها قبل أن يهيم به أحد.

ومن بين عاداتها الثابتة استيقاظها باكرا كل صباح مع أولى خيوط شمس تلامس زجاج نافذتها ليس كي تملأ رئتيها بالهواء المنعش ولا لكي تعيش ساعة هدوء وصفاء نادرة، بل لكي يتسنى لها الجلوس أطول وقت ممكن أمام المرآة، هناك تتسمَّر متوحّدة بانعكاس صورتها مدة لا تعرف مدى طولها، فقط تدرك أنها أطالت الجلوس أو تأخرت حين تسمع صوت أمها يناديها من المطبخ ـ لقد تأخرتِ، أم يجب عليك نصب خيمتك كل صباح أمام المرآة؟

ـ قادمة، تجيبها من مكانها

ـ وهل يجب عليَّ أن أعيد هذا الكلام يوميا؟

لا تجيبها على سؤالها الثاني وإنما تقرِّب شفتيها من المرآة تُقبِّل وجهها بشغف وعنفوان يلامس سقف النرجسية، تتمنى لو باستطاعتها أن تحضنه إلى ما لا نهاية، ترمقه بابتسامة امتنان كونه وجهها وتنصرف.

في الطريق إلى جامعتها "وحتى قبل ولوجها عالم الجامعة" ليس هناك ما يدور في بالها ويشغل رأسها سوى كيف ستصبح مشهورة؟، كيف ستملأ صورها الأنيقة صفحات المجلات والجرائد، وكيف ستغزو مقابلاتها شاشات التلفزيون وصفحات التواصل الاجتماعي التي غزت ساحات الإعلام مؤخرا...

تتأفف وتتنهد طويلا ويحدث أن يُعكِّر صفو يومها بالكامل إذا التقت بإحدى صديقاتها أو قابلها احد زملائها ولم يقل لها كم أنت جميلة أو يثني على أبسط ما فيها... تصفرُّ ابتسامتها إذا ارتدت ثوبا جديدا ولم تجد من يمدح في طلتها أو يمتدح في ذوقها طوال الوقت، أما بالنسبة لصديقاتها فهي تختارهن بعناية، تفضل دوما مصادقة ومرافقة بنات عاديات حتى تكون وحدها المنبثقة المشعة والخاطفة للنظر...

وجهها المسكين المغلوب على أمره تمنَّى في سره لو لم يكن ملكها فكثرة المساحيق والأقنعة التي تطليه بها صباحا ومساءً قد أرهقته كثيرا، أما شعرها فلم يسلم هو الآخر من تغيرات ذوقها وتطلعاتها للحصول على الشكل الجذاب المميز فقد جرَّبت عليه قصات مختلفة وصبغته بألوان متنوعة، الأصفر، البني، الزهري طبعا وكل ذلك يكون في سباق ماراطوني مع سوق الموضة...

ولأنها شبه ملتصقة بالمرآة ـ إن استثنينا تلك اللحظات التي ترغمها على إخفاء مرآتها ـ سواء مرآة غرفتها التي تعرض كامل جسدها أو مرآة حقيبة يدها التي تعكس ملامح وجهها فقط، فقد كانت السباقة لرؤية البثور التي بدأت تظهر فجأة على وجهها ورقبتها وتكتسحهما، بثور أرعبتها وجعلت الهلع يفشل ركبتيها وأطرافها ويمتص لون وجهها ويسرِّع في نبضات قلبها، ولسوء حظها فقد كانت هذه البثور تنتشر بتناسب طردي مع حجم فزعها...

الأطباء المختصون وغير المختصين احتاروا في هذا المرض الذي كان لوجهها السبق في ظهوره وانتشاره بهذه الصورة المرعبة، والذي جعل نشره على صفحات الجرائد والمجلات سبق آخر لكن بنكهة صحفية، ومع انتشار الخبر انتشار النار في الهشيم سُلطت عليها أضواء لم تكن تحلم يوما أنها ستكون بهذا الشكل...

وبعد أرقها المعتاد وتقلباتها المألوفة وغير المنتهية على سطح سريرها خلُصت كالعادة إلى أن تخرس طنين أذنيها وضجيجهما عن طريق سماعات هاتفها والتي بمجرد أن تقتربا من ثقبي أذنيها تشرع في الدندنة آليا بكلمات أغنيتها المفضلة " سيد الحبايب يا ضنايا انت ، يا كل املي ومنايا انت ....." لتسرح بها الذاكرة في مكامن الروح فتعيد عليها ساعات يومها المثقلة حد الشجن والوجع، وقد يصل بها الأمر إلى الانهيار في كثير من الأحيان...

ساعات يومها هذه كانت تستفتحها بلا شك كل صباح بالدعاء لسيد الخلق كي يتكرم عليها ب"سيد الحبايب" ومع رفع يديها بالدعاء لا تتأخر عن خفض عينيها وإغماضهما ليتسنى لها الخشوع وهي ترسمه في مخيلتها بصور متداخلة، فالشكل واللون والجنس ليس من أولوياتها، كل ما يهمها أن يكون " سيد الحبايب" الذي سوف تحبه وتلاعبه وتحضنه وتدرسه، وتنهره ...

ثم في طريقها للعمل لا تفوت أية فرصة لوضع الكثير من الدنانير في محارم الشحاذين علها تشحذ منهم هي الأخرى بعض الأدعية والابتهالات التي ستتوسط بينها وبين الخالق حتى يعجل بمجيء " سيد الحبايب" ...

تصبر نفسها كلما ذهبت إلى الطبيب النسائي بأنها ليست الوحيدة في هذا العالم التي تفتقد " سيد الحبايب" وأن هناك من تشاركها نفس الحسرة ونفس حرقة الانتظار غير المنتهي.

تذهب في بعض الأحيان إلى الشوافات " العرافات" بعدما تكون قد أخذت الإذن من الله خلسة وطمأنت نفسها بعبارة "الغاية تبرر الوسيلة"، بعد الزيارة وفور عودتها للبيت ترتشف العقاقير التي تكون قد وصفتها لها من زارتها وتحرص أن تكون الكمية مضبوطة، والوقت مضبوط وحتى شدة مرارة الخلطة مضبوطة هي الأخرى... فهذه المرارة لن تفوق أبدا مرارة انتظارها وترقّبها.

تتفرج على برامج الأطفال خلسة وبكل براءة ثم سرعان ما تلقي بتلك البراءة أرضا وتضغط على زر تغيير القناة بمجرد ولوج زوجها باب البيت لا لشيء سوى لأنها لا تريد أن يحس أبدا بأن هناك جنة اسمها "سيد الحبايب" .

تتجنب المرور بمحاذاة المحلات المخصصة لبيع ملابس الأطفال التي ومن خلال طريقتها المغرية في عرض السلع تعمل ما بوسعها لفتح شهية الأزواج على إنجاب قبيلة أطفال...

تختبئ وتخبئ عينيها من كل العيون وحتى من عيني زوجها في كل عيد أم حتى لا يتحرش أحد بوجعها ويسألها احد عن سبب تأخر أو عدم مجيء من يقول لها: "كل عام وأنتِ بخير يا ماما ".

عادت في إحدى الأمسيات تحمل في بريق عينيها سعادة الكون لتخبئ رأسها في حضن زوجها وتبشره بأنهما سيدندنان قريبا بكلمات أغنية "سيد الحبايب" سيرفعان صوتهما عاليا، عاليا جدا كي يصل لكل الآذان التي كانت مغلقة عن ألمهما، حضنها بدوره بقوة البشرى، قوة جعلتها تستيقظ من نومها مذعورة من صبح جديد أتى وشمس أشرقت مكبّلة بأشعتها حلم ليلة مضت.

بتثاقل وإحباط أعادت فتات انكسارِ أمنية "سيد الحبايب" مُغَلَّفة بأحلامها دستها بعناية تحت وسادتها ونهضت لاستقبال يوم جديد بنكهة أمل قديم ...

في نقطة أخرى من هذا العالم امرأة في مثل عمرها لكن بظروف أسوأ بكثير من ظروفها يجلس الفقر رفقتها و زوجها ومعهم أطفالها... وعلى مائدة الفطور كانت تشيح بعينيها بعيدا عن هذا الزوج كلما تقاطعت نظراتهما خوفا من أن يكتشف في هذا التقاطع وفي تقاسيم ملامحها الخائفة والمحتارة آثار الكابوس الذي شاهدته في ليلتها الماضية ... تعضُّ شفتيها وتنهر نفسها خلسة فلا كاهلها ولا كاهله أضحى يحتمل رقما جديدا لطفل يضاف إلى أرقام همومهما...

الفهرس

الاهداء	3
لقاء الزهايمر	7
عالم افتراضي	8
أنا و الغيرة	9
هواية مبتورة	10
أحلاهما مر	14
وعد أجوف	18
غربة	20
أرقام خيالية	27
X	33
الأرض ليست لمن يخدمها	33
انتظار	37
إنه رجل	44
الجوع الكافر	46
بائع السعادة	49
عرافة	56
ستر معرى	64
مرآتي يا مرآتي	68
خلل نفسي	74
نجاح فاشل	81
عمى	85
النخاسة الحديثة	90
حلم الشهرة	94
سيد الحبايب	97
الفهرس	100